الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي - ميلة -

المعهد:الآداب واللغات
الميدان:الآداب واللغات

عنوان المذكرة:

المديح النبوي في صدر الإسلام عند كعب بن زهير-البردة- أنموذجا
-دراسة تحليلية فنية-

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد
تخصص الأدب العربي

إعداد الطلبة:

1 - بن يوسف حنان
2 - لعور يمونة
3 - محمود علي

إشراف الأستاذة:
الوالي سعاد

السنة الجامعية: 2012/2011.

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم مغرس كل فخر فافتخر
واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
واعلم بان العلم ليس بناله
من همته في مطعم أوملبس
إلا اخو العلم الذي يعني به
في حالتيه عاريا أو مكتسي
فاجعل لنفسك منه حظا وافرا
واهجر له طيب الرقاد و عبس
فلعل يوما إذا حضرت بمجلس
كنت الرئيس و فخر ذلك المجلس

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة العقل و قوة الصبر لإتمام هذا العمـــل

فهو وحده جل جلاله له حمدا يليق بكماله وثناء يليق بعظمتـــه

وفضله علينا و على الناس أجمعين

نتقدم بجزيل الشكر وفائق الإحترام و التقدير لأســتاذتنا

المشرفة "الوالي سعاد"

التي ساعدتنا كثيرا بنصائحها و توجيهاتها و ماقدمتـــه

لنا من وقت و جهد و رحابة صدر ونرجو مـن الله عز وجل أن

أن يحفظها و يسدد خطاها

كما نشكر جميع أساتذتنا طوال مشوارنا الدراســي

كما لا ننسى كل من قدم لنا يد العون من بعيد او من قريـــب

و اخيرا نشكر كل من ابتسم في وجهنا و ساعدنا ولو بكلمة طيبـــة

مدخل:

مع الإسلام طرأ تطور على الشعر خاصة شعر المديح ، لأن الفضائل التي كان الجاهلي يتغنى بها دخل عليها التعديل من وجهة النظر الإسلامية ، وبما أن القيم الإسلامية جاءت لتحل مكان القيم الجاهلية فقد كانت بحاجة إلى من يعززها ، فقام الشعراء بهذا الدور يمدحون الرسول(ص) و يدافعون عن الإسلام .

ولقد كان أغلب المدح في الشعر الجاهلي صادقا في مضمونه ، و إذا كان أغلب الشعراء آنذاك لا يمدحون الرجال إلا بما يرون فيهم من الخصال الحميدة و يلمسون فيهم من شجاعة و كرم حيث يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصفه لزهير أنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال .

مع الإسلام استمر المدح الذي يتغنى بالفضائل الثابتة و دخلته تشعبات متنوعة تمدح الرسول (ص) و قادة الفتوحات ، و دخلته معان جديدة كالعدل و إيتاء الزكاة و الصلاة و الحج و الصوم و الجهاد و التقوى كدليل لارتباط الشعر عامة بالواقع .

ومع انتشار الإسلام خفت صوت الشعر عموما لأن الناس شغلوا بالدين الجديد عن الشعر و شغلهم القرآن ، بفصاحته كما انشغلوا بالفتوحات [1]، كما نشير إلى أن الإسلام لم يحرم الشعر إلا ما كان منه يحرض على الموروثات الجاهلية التي حرمها الوحي ، و لقد فتح أمام العرب أبوابا جديدة للفكر و لفن القول تدور حول الجهاد و تحفيز العزائم و الهمم للجهاد في سبيل الله و نشر تعاليمه ، ومقاومة خصومه .

لما أعلن الرسول (ص) الحرب على الأخلاق في الجاهلية ، كان من الطبيعي أن ينقص الإسلام من الشعر و في حديثه (ص) " لأن تمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيرا له من أن يمتلئ فمه

شعرا [1] " حيث شعل الإسلام بالدعوى الكبرى فبين مؤيد و معارض اشتدت الخصومة بين الرسول (ص) و قريش فجردوا عليه الألسنة لكن شعراء العرب موقف الحياد ، ينتظرون المعركة بين الديمقراطية و الارستقراطية و بين محمد (ص) وقريش ، فلم يغامر في الخصوم ة إلا الشعراء و القرشيون و على رأسهم عبد الله بن الزعبري ، و عمرو بن العاص ، فآذوا الرسول (ص) بالهجاء فهاج ذلك من شاعرية الإسلام وودوا لو يأذن الرسول (ص) بمساجلتهم حتى قال لهم : " ماذا يمنع الذين نصروا الله و رسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم حتى نهض نفر من الصحابة منهم حسان بن ثابث و كعب بن مالك و شبو ا حربا كلامية جاهلية و كانوا يتهاجون عن النمط المعروف من الفخر بالأنساب ، ويدل على ذلك قوله (ص) بحسان بن ثابث : " اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم " و قوله : " و كيف تهجو قريشا و أنا منهم " [2] .

و قد استمع الرسول (ص) إلى الشعر خاصة الذي يعبر عن مثاليات الإسلام ، وكان له شاعره الخاص حسان بن ثابث ، الذي دافع عن الإسلام ، فاتخذه الرسول شاعره و يكفيه فخرا أن الرسول دعا له فقال : " اللهم أيده بروح القدس " حيث قال حسان بن ثابث يمدح النبي (ص) :

أَغـرّ عليه للنبوة خاتم ..... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه..... إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

وشق لـه من اسمه ليجلـه..... فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة..... من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبد

فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً..... يلوح كما لاح الصقيل المهند [1] .

---

[1] رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة . دار طوق النجاة.1422ه .ج9.

[2] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت ، 2000 . ط 6 .ص 78 – 79 .

[1] حسان بن ثابث الأنصاري. شرح ديوان ، وضعه و ضبط الديوان و صححه .عبد الرحمان البرقوقي . مصر 1929 .دط.ص 87 .

ففي هذه القصيدة مدح للرسول (ص) و تمجيد و تعظيم الله تعالى ، ففي مدح حسان بن ثابث للرسول ركز على ذكر مناقبه العظيم ، من مكانة سامية عند ربه ، و من تبليغه الرسالة و أدائه الأمانة ، فهذى الناس إلى سواء السبيل ، حيث تحدث حسان عن فضل النبي (ص) على البشرية عامة و على العرب خاصة ، فكان رسول الله (ص) المصباح المنير و النجم اللامع لمعان السيف المصقول ، فأنار للناس سبيل الحق ، و هداهم إلى الخير و بشر بالجنة و أنذر بالنار ، وعلمهم الإسلام ، وكيفية حمد آلاء الله و نعمه التي لا تحصى عن طريق الشكر القولي و العملي .

فالرسول (ص) قد جاء داعيا للعرب إلى الوحدة ، وجمع الألفة و الأخوة ، فهو إذ يذم الشعر لا يذمه على إطلاقه و إنما يذم نوعا خاصا منه ، و هو ذلك الشعر الذي يباعد بين العرب و يمنع وحدتهم و يفرق كلمتهم و يذكي فيهم روح العصبية بكل مفاسدها .

والرسول إذ يمدح الشعر بقوله: " إن من الشعر لحكمة " [1] فهو يشير إلى الأشعار التي يغلب عليها طابع التدين و الدفاع عن الدعوة الإسلامية و الانتصار للحق و الإشادة بالفضائل.

ولولا مدح الرسول لذلك الصرب من الشعر لماتت الرواية بعد الإسلام و لما وجد في الرواية من يجعل وكده و قصده حمل الشعر و روايته و تفسيره و استخراج الشاهد و المثل منه.

و كأنه عليه الصلاة و السلام حين تسمع الشعر مدحه و أثاب عليه و رخص فيه لم يرد إلا هذا المعنى ، والشاهد القاطع على ذلك قوله في الجاهلية: " إن الله قد وضع عنا آثام الجاهلية في شعرها و روايتها " [2] ، فبمثل هذا القول استأنس العلماء و تجردوا للرواية ، ومن ذلك كله نرى أن موقف الرسول (ص) من الشعر أنه ذم منه ما يتعارض و روح الإسلام ، ومدح منه ما يتفق و تعاليم الإسلام و يعمل على نصرته .

---

[1] رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة .دار طوق النجاة 1422ه.ج 9 .
[2] عبد العزيز عتيق، في الأدب الإسلامي و الأموي، دار النهضة، بيروت، لبنان ، 2001 .ط 1.ص 23 .

و من هذه الشواهد جميعا يتبين لنا موقف الرسول (ص) من الشعر ، فالرسول يعرف أن الشعر مرتبط بحياة العرب و أنه ليس صورة القول و لهذا قال عليه الصلاة و السلام : " لاتدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين " [1] ،أي أن عند العرب لا يمكن التخلي عنه لأنه مرتبط به منذ القديم.

كما ورد الشعر في القرآن الكريم في مواضيع مختلفة تنفي كون التنزيل الكريم شعرا أو أن الرسول (ص) شاعر قوله تعالى : " وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ " [2] ، و قوله تعالى: "بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ "[3] ، و قال تعالى : "وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ " [4] ، و قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ " [5]، وقال تعالى : "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ "[6] .

فتنزيه القرآن الكريم على أنه يكون شعرا ، أو أن يكون رسول الله (ص) شاعرا ليس طعنا على الشعر بأية صورة من الصور ، ولا غضا من قيمته ، فالأمر لا يخرج عن كونه إقرارا لواقع ثابث لا شك فيه .

فالقرآن صورة بيانية فريدة تبتعد كل البعد أن تكون شعرا ، لهذا جاءت الآيات كلها في نفي أن يكون القرآن شعرا منسوبا إلى مشركي العرب ، وردا على افترائهم ، ولهذا أيضا نجد جميع هذه الآيات مكية ، للدلالة على نزولها في وقت المعارضة الشديدة من جانب قريش .

---

[1] محمد مصطفى هدارة .الشعر في صدر الإسلام و العصر الأموي دار النهضة العربية ، بيروت ، 1995 .ط .1 ص 97 .

[2] يس/ 68.

[3] الأنبياء /04.

[4] الصافات /35.

[5] الطور /29.

[6] الحاقة /40 – 41.

كما اخبر الله تعالى في كتابه أنه بعث رسولا للعرب و يجب عليهم أن يعرفوا فضائله و مكانته ، فهو حريص على دخولهم إلى دار الإيمان ، شريف النسب فيهم رؤوفا رحيما ، وقرن طاعته بطاعته في قوله تعالى :

"وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا " [1] ، و قال تعالى : "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" [2] ، فمن أصابه شيء من رحمته فقد فاز و سماه فيه فوزا ، بقوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا "[3] .

و بناء على ما قدمناه من شواهد يجب علينا أن نؤكد دعوى وهن الشعر بعد الإسلام قائمة على غير دليل ، وأن الإسلام لم يرفض الشعر و إنما دعي إلى الالتزام بقواعد أخلاقية فيه ، فالموهبة التي يضفيها الله على بعض عباده يجب أن تكون بعيدا عن الشر ، ولهذا كان رسول الله (ص) يقول لأصحابه : " قولوا بقولكم و لا يستحوذن عليكم الشيطان " [4] و الكلمة عندما تخرج من اللسان يكون لها أبعد الأثر في النفس ، فما بالك إذ كانت شعرا في أمة تربط حياتها بالشعر .

و لما كانت غاية الدين طاعة الله ، لهذا أوجب أن تكون هناك رقابة على حصائد الألسنة ، فقد كان رسول الله (ص) يقول : " و لا يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم" [5] .

---

[1] النساء/ 68.
[2] الأنبياء /107.
[3] الأحزاب /44 – 45 – 46.
[4] مرجع سابق، د. محمد مصطفى ، صدارة الشعر في صدر الإسلام و الأموي ، ص 127 .
[5] المرجع نفسه .ص128.

المقدمة :

يعتبر الشعر خزانة الأدب وبداياتها للولوج إلى العديد من الأغراض الشعرية التي صاغها الشعراء في حلل محكمة النسج و يعتبر غرض المديح من بين الأغراض التي أولاها عناية خاصة نظرا لروح العصر آنذاك(العصر الجاهلي) .

كما ظهر المديح في العصر الإسلامي ولكن هذا المديح تغني بالفضائل الثابتة ودخلته تشعبات متنوعة تمدح الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومن بين الشعراء الذين قاموا بتزيين أشعارهم بمدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–كعب بن زهير.

ولقد أثار اهتمامنا أن نطلع على الشعر المتعلق بالمديح النبوي حيت تعدت الدراسات حول شعر المديح كما لفت انتباهنا أيضا دراسة العديد من النقاد لقصيدة البردة لكعب بن زهير و معارضتها و من بينهم علي بن محمد ابن مروان الخوارزمي الذي عارض في صباه قصيدة "بانت سعاد "في مطلعها بقوله:

أضاء برق وسجف الليل مسدول * كما يهز اليماني و هو مصقول

بالإضافة إلى تقي الدين الطيب و ابن نباتة المصري.

أما سبب اختيارنا لهذا الموضوع ما يلي:

أ.مدى أهمية قصيدة " **بانت سعاد**" و اكتسابها للملابسات التاريخية بما يفوق قيمتها الفنية التي لا نشك فيها بالطبع.

ب.قصيدة كعب بن زهير اندرجت في إطار القوالب العامة لقصائد الشعر الجاهلي حيث حملت من أغراضه الغزل و النسيب و الوصف و الحماسة و المدح و الاعتذار ومن ملامحه فخامة الألفاظ و قوة الجرس الموسيقي.

وعلى هذا الأساس عنونا مذكرتنا هذه بعنوان المديح النبوي و لكون هذا الأخير هو محور رسالتنا فقد بدا لنا طبيعيا أن نقسم بحثنا إلى مقدمة و مدخل و ثلاثة فصول

ففي الفصل الأول تناولنا في مفهوم المدح بين اللغة و الاصطلاح بالإضافة إلى مفهوم المديح النبوي.

و الفصل الثاني بدأنا بتوطئة ثم تحدثنا عن الشعر في آل زهير و التعريف بالشاعر كعب بن زهير و قصة إسلامه و شؤونه الشخصية ، ثم أدرجنا تعريفا للبردة ثم ذكرنا شهرتها و قيمتها و بنائها وذكرنا أقسامها المتمثلة في المقدمة الغزلية و وصف الناقة و المديح النبوي .

أما الفصل الثالث تطرقنا فيه إلى الجانب التطبيقي ، حيث قمنا بتحليل قصيدة البردة تحليلا فنيا و ذلك بإعطاء مفهوم لكل من الصورة و الفن و الصورة الفنية بالإضافة إلى تشكيلات الصورة الفنية البلاغية المتمثلة في التشبيه و الكناية و الحسنات البديعية المتمثلة في الطباق و المقابلة و التصريع و الإيقاع الموسيقي .

أما عن منهج الدراسة فإننا اتبعنا المنهج التحليلي الفني و من أهم المراجع

التي اعتمدنا عليها كثيرا أدب المدائح النبوية لمحمود علي المكي وجماليات المقدمة في الشعر العربي لمحمد مهداوي و كذلك الجامع في تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري

أما الصعوبات التي واجهتنا أثناء إعداد هذه الرسالة نذكر منها:

أ. صعوبة التعامل مع النصوص البلاغية القديمة.

ب. صعوبة فهم بعض ألفاظ القصيدة.

وإننا لنرجو ختاما أن تكون دراستنا حلقة تضاف إلى سلسلة الدراسات التي اهتمت بتراثنا القديم.

وواجب الشكر أخيرا إلى كل من قدم لنا يد العون و لو بكلمة طيبة وهي صدقة كما هو معلوم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو ولي التوفيق و العاصم من الزلل والهادي إلى سواء السبيل.

مفهوم المديح بين اللغة و الاصطلاح

أ) لغة

ب) اصطلاحا

ج) المديح النبوي

المدح لغة :

المدح : نقيض الهجاء و هو حسن الثناء ، يقال : مدحته مدحة واحدة ، و مَدَحَهُ يَمدَحُهُ مَدحًا ومِدحَةً ، هذا قول بعضهم ، والصحيح أن المدح المصدر ، و المِدحَةَ الاسم ، والجمع مِدحٌ ، و هو المديح و الجمع المدائح و الأماديح ، الأخيرة على غير قياس ، ونظيره حديث و أحاديث .

قال أبو ذؤيب :

لو كان مِدحَةُ حي منشرا أحدا * * * أحيا أباكن ، يا ليلى الأماديح.

قال ابن بري : الرواية الصحيحة ما رواه الأصمعي و هو :

لو أن مِدحَةَ حيٌ أنشرت أحدًا * * * أحيا ، أبوتك الشم الأماديح .

و المدائح جمع مديح من الشعر الذي مدح به كالمدحة و الأمدوحة ، ورجل مادح من قوم مدح و مديح ممدوح .

و تمدح الرجل : تكلف أن يمدح ، ورجل ممدح أي ممدوح جدا ، ومدح للمثني لا غير ، ومدح الشاعر و امتدح .

و تمدح الرجل بما ليس عنده ، تشبع وافتخر و يقال ، فلان يتمدح إذا كان يترظ نفسه و يثني عليها ، والممادح ضد المقابح [1] .

[1] ابن منظور" لسان العرب " .ضبط و نصه و علق حواشيه د. خالد رشيد القاضي . دار صبح و إديسوفت . بيروت – لبنان . 2006 .ط1.ج 13. ص 46 .

و جاء في أساس البلاغة للزمخشري :

" مدح ، مدحه وامتدح وممدح ، يمدح بكل لسان و العرب تتمدح بالسخاء ، و هو يتمدح إلى الناس أي يطلب مدحهم ، و عندي مدح حسن و مديح و مدائح و مدحة و مدحو ممدحة و أمدوحة و أماديح " [1] .

المدح اصطلاحا :

هو تعداد لجميل المزايا ووصف للشمائل الكريمة و إظهارها للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا " [2] .

كما يعرفه الدكتور عمر فروخ : " المدح هو فن من فنون الشعر ، كان الجاهليون يمدحون بالمكارم التي كانوا يفخرون بها " [3] .

و يعرفه كذلك الدكتور شوقي ضيف : المدح في الجاهلية كان ضربين :

الأول : مديحا للشكر و الإعجاب ، يغلب على أهل البادية كما نرى عند امرئالقيس و عند زهير بن أبي سلمى .

الثاني : مديحا للتكسب يغلب على أهل الحضر و ساكني الحضراء و المترددين على الحضر ، كما نرى عند النابغة و الأعشى [4] .

---

[1] الزمخشري ، محمود بن عمر ، أساس البلاغة ت ح . عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، د ت ، بيروت .دط. ص 324 .
[2] ابن منظور "لسان العرب" محمد بن مكرم .اعداد و توظيف يوسف خياط ، دار لسان العرب بيروت ، د.ت.دط . ص 452.
[3] عمر فروخ ، تاريخ الادب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د ت . دط . ص 83 .
[4] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، دار المعارف القاهرة ، كورنيش النيل 1963. دط . ص 40 .

المديح النبوي: (مفهومه)

المديح النبوي هو الذي انصب على مدح الرسول (ص) و تصوير أخلاقه تصويرا صادقا من رجاحة العقل و العفة و الكرم و الشجاعة و جميع الأخلاق النفسية بالإضافة إلى المحاسن الخلقية و الخلقية .

و تعرف المدائح النبوية كما يقول الدكتور زكي مبارك بأنها:

" فن من فنون الشعر الذي أذاعها التصرف فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا من قلوب بالصدق و الإخلاص ، و أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول (ص) و ما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء ، و لكنه في رسول الله (ص) يسمى مدحا ، كأنهم لاحظوا أن رسول الله موصول بالحياة ، و أنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء ويمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاء إلا إذا قيل في أعقاب الموت ، ولذلك نراهم يقولون : قال حسان بن ثابث يرثي النبي (ص) ليفرقوا بين حالين من الثناء : كما كان في حياة الرسول (ص) و ما كان بعد موته (ص) ، بخلاف ما يقع من شاعر ولد بعد وفاة النبي (ص) فإن ثناؤه عليه مديح لا رثاء ، لأنه لا موجب للتفرقة بين حال و حال ، و لأن الرثاء يقصد به إعلان التضجع ، على حين لا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين و الثناء و هكذا بدأ المادحون المدح النبوي بصدق القلب و مطهر الخيال و الفكر لأن شخصية النبي جديرة أن تمدح به [1] كما في قوله تعالى : « و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [2] .

---

[1] زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي ،دار الكاتب العربي للطباعة و النشر.1935 . ط1 ، ص 18.
[2] الأنبياء /07.

1. توطئة
2. الشعر في آل زهير
3. التعريف بالشاعر كعب بن زهير

أ. إسلام كعب بن زهير

ب.شؤونه الشخصية

4. البردة(المصطلح والمفهوم)

- تعريف البردة

5. قصيدة البردة شهرتها وقيمتها
6. بناء قصيدة البردة

1.6. أقسام القصيدة ومضمونها

أ. مقدمة غزلية

ب.وصف الناقة

ت.مديح نبوي

2.6 مضمون القصيدة

أ. المقدمة الغزلية

ب.وصف الناقة

ج. المديح النبوي

1. توطئة:

كان "كعب بن زهير" من الشعراء الذين هاجموا الدعوة المحمدية وتطاولوا على شخص الرسول (ص) وصحابته رضي الله عنهم، حتى اشتد هذا الهجوم إلى هجاء الرسول(ص)والإسلام ، غير أن الرسول(ص) لم يكن عنيفا اتجاهه بل كان أقرب إلى العفو والصفح عنه ، لكن هذا الموقف من كعب اتجاه الإسلام واتجاه رسوله لم يفد به شيئا فقد أبت قبيلة مزينة أن تؤويه وكذا سائر القبائل ، فلما ضاقت به الأرض والسبل قدم إلى المدينة ونصحه رجل كان يعرفه بأن يذهب إلى رسول الله (ص) فيستأمنه ، ففعل وكان من كعب أن يعتذر إلى رسول الله ويمدحه في قصيدته التي ألقاها أمامه حين فرغ من إنشاده كساه الرسول (ص) بردة فمنذ ذلك الحين سميت القصيدة بالبردة .

وتعتبر قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير من القصائد القديمة التي نالت شهرة واسعة لدى الدارسين قدماء ومحدثين فقد عورضت القصيدة وشطرت وخمست كما شرحت شروحا عدة : أدبية ولغوية ونحوية وصرفية ولعل سبب اهتمام الدارسين قديما وحديثا بهذه القصيدة مرده إلى أنها ألقيت بين يدي رسول الله (ص) مما أكسبها صفة دينية .

وقد يميز هذه القصيدة أنها تنتمي إلى ما سمي في الأدب العربي بفن الاعتذاريات ، وهو فن يحتاج إلى مقدرة خاصة يجمع بها الشاعر بين الحجاج المقنع المستند إلى المنطق والاستشارة العاطفية ، وقد برع في ذلك النابغة الذبياني التي اشتهرت قصائده بالاعتذارية التي توجه بها " النعمان ابن المنذر " وهي قصائد تأثر بها "كعب بن زهير " حتى أنه نقل ألفاظ بعض أبياتها كما في قوله :"نبئت أن رسول الله أوعدني " الذي يذكرنا بقول النابغة :"نبئت أن أبا قابوس أوعدني " غير أننا نعود فنذكر أن كعبا لم يكن الوحيد الذي أتى إلى الرسول (ص) تائبا عما أسلفه من قبيح القول ، فقد شاركه في ذلك شعراء أمثال: أبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن

الزبعري ، وأنس بن زنيم ، غير أن التاريخ لم يخلد ذكر أحد من هؤلاء كما خلد لذكر كعب [1] فالقصيدة إذن لا تخلو من غرض الاعتذار وهذا ما كان واضحا في أبيات كعب التي وظفها إلى الاعتذار إلى الرسول (ص)وطلب العفو وهذا ما سنراه في مضمون القصيدة .

وتعد لامية كعب بن زهير إحدى روائع الأدب العربي، واشتهرت أكثر من غيرها من القصائد التي تعارضت معها ، لأنها تمثل موقفا سياسيا ، له دلالة اجتماعية ونفسية وفنية وحفلت هذه اللامية بأجواء العصر السياسية والدينية وكشفت عن موقف النبي (ص) من الشعر وموقف الشعراء منه ولم يقتصر الاهتمام بهذه القصيدة على أصحاب التراجم الأدبية واللغويين فحسب ، بل لقيت اهتماما ملحوظا من قبل المؤلفين في سيرة الرسول (ص) [2] ، وأصحاب طبقات الصحابة وقد أورد هؤلاء قصة إسلام كعب بن زهير ،كما أوردوا أبيات شعرية من :"بانت سعاد" ، تتفاوت قلة وكثرة ، وقد أورد بعضهم القصيدة كاملة ، ولكن أحدا منهم لم يثر شكا حول الروايات التي تحدثت عن إسلام كعب ، كما لم يشككوا أيضا في أن القصيدة ألقيت أمام الرسول (ص) .

وقد نالت القصيدة اهتماما ملحوظا عند الدارسين والمحدثين مستشرقين وعرب [3] على حد سواء مما تصدى منهم لدراسة أدب عصر صدر الإسلام عامة وشعر كعب بن زهير خاصة ، ولم يشك أحد من هؤلاء في نسبة القصيدة لصاحبها ، أو أنها ألقيت بين يدي رسول الله (ص) لا بل أكد معظمهم على أنها من نظم كعب وأنها تنتمي إلى العصر الذي قيلت فيه .

2. الشعر في آل زهير :

---

[1] : ينظر: محمود علي مكي :المدائح النبوية .الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان-مكتبة لبنان.1991. ط1. ص 56.
[2] : ابن هشام : السيرة النبوية ت.ح. مصطفى السقا.دار إحياء التراث العربي. بيروت –لبنان. د ت. ط1. ص 501.
[3] : انظر : طه حسين . حديث الأربعاء . دار المعارف .مصر.1976م. ط1 .ج1 .ص 121.

ينتسب زهير بن أبي سلمى إلى قبيلة مزينة ، إحدى قبائل مصر وكان يقيم هو وأبوه وولده في بني عبد الله غطفان في الحاجز من نجد ، فقد تزوج أبوه ،أبو سلمى ، ربيعة بن رباح امرأة من بني فهر بن مرة من ذبيان بن غطفان ، فولدت له زهيرا وأوسا وتزوج زهير امرأة من بني سحيم بن مرة .

وينتمي زهير إلى أسرة كثر فيها الشعراء ، فكانت قبيلته معروفة بالشعر وكثرته حيث كان أبوه شاعرا وخاله بشامة ابن الغدير شاعرا وأخته سلمى شاعرة وكذلك أخته الخنساء شاعرة أيضا ، بالإضافة إلى إبناه كعب وبجير شاعرين ، وكان حفيده عقبة بن كعب المعروف بالمضرب شاعرا ، وكان لعقبة ابن يقال له العوام وكان شاعرا كذلك .

قال ابن قتيبة :"يقال إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير "[1]

وكان الشعراء يعرفون بعبيد الشعر لعنايتهم بتنقيح شعرهم وتفكيكه ، وقد طهرت هذه العناية واضحة في شعر كعب بن زهير وهذا من خلال قصائده المختلفة لا سيما قصيدته البردة التي تخص مدح الرسول (ص) التي تحمل مضامين دينية [2] .

3. التعريف بالشاعر كعب بن زهير :

[1] : كعب بن زهير" الديوان" قرأه . محمد يوسف نجم . دار صادر. بيروت.2002. ط1.ط2 . ص 5.
[2] :المصدر نفسه.ص 5-6.

هو الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى ، ربيعة بن رباح المزني ، وأمه كبشة بنت عمار بن سحيم بن زهرة بن مرة أحد بني عبد الله بن غطفان تزوجها زهير ثم نزل فيهم هو وأهل بنيه وأنجبت له سالما وبجيرا وكعبا .[1]

وأبوه هو الشاعر الجاهلي المعروف ، أحد أصحاب المعلقات، و قد عاش كعب بنجد في كنف أبيه ، وكان أبوه موسعا عليه في بره فلما مات ساءت أحواله ، ولازمه سوء الحظ فافتقر ، وكان لا ينمي (أي لا يثمر)له مال [2] بالإضافة إلى أن أباه عرف بحسن خلقه وحبه للخير ، على عكس كعب فكان في جاهليته "رجلا شريرا شرسا معارفا(أي مضيقا عليه في الرزق) مملاقا (أي فقيرا)"[3]

وقد أجمع الرواة على أن كعبا أحد الفحول المجودين في الشعر ، مقدما في طبقته ، ويصفون شعره بشدة التماسك وجزالة اللفظ وسمو المعنى .

قال الشعر وهو صغير ، وقد اهتم به أبوه اهتماما كبيرا وأولاه عناية خاصة لما لمس عنده من موهبة فذة وقدرة فائقة في نظم الشعر ويذكر " أبوه العباس ثعلب" في قوله بخصوص كعب : " وتحرك كعب بن زهير بن أبي سلمى وهو يتكلم بالشعر ، فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم سيتحكم شعره فيروى ما لا خير فيه ، فكان يضربه في ذلك ففعل ذلك به مرار يضربه ويزبره فغلبه فطال ذلك عليه فأخذه فحبسه ، ثم قال : والذي أحلف به لا تتكلم ببيت شعر ولا يبلغني أنك تريغ الشعر –أي تطلبه– إلا ضربتك ضربا ينكلك عن ذلك فمكث محبوسا عدة أيام ثم أخبر أنه يتكلم به ، فدعاه فضربه ضربا شديدا ، ثم أطلقه وسرحه في بهمه وهو غليم صغير فانطلق فرعاها ثم راح بها عشية وهو يرتجز:

كأنما أحدوا ببهمي عبيرا من القرى موقرة شعيرا

---

(1) :المصدر السابق. ص 6.
(2) : انظر: محمود علي المكي. المدائح النبوية. ص 33-34.
(3) : كعب بن زهير"الديوان" قرأه محمد يوسف نجم.ص213-227 .

فخرج زهير أليه وهو غضبان فدعا بناقته وكفلها بكسائه –والكفل أن يفتل إزارا أو كساء فيجعله حول السنام– ثم قعد عليها حتى انتهى إلى ابنه كعب فأخذ بيده فأردفه خلفه، ثم خرج يضرب ناقته وهو يريد أن يتنعت كعبا ويعلم ما عنده ويطلع على شعره ، فقال زهير حين برز من الحي:

إني لتغدوا بي على الهم جسرة تخب بوصال صروم وتفـق

ثم ضرب كعبا وقال أجز يا لكع فقال كعب:

كبنيانة القرئي موضع رجلها وأثار نسعيها من الدف أبلق

فقال زهير :

على لاحب مثل المجرة خلته إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق

ثم ضرب كعبا وقال :أجز يا لكع فقال كعب :

منير هداه ليله كنـهاره جميع إذا يعلو الحـزونة أفـرق

ثم بدأ زهير في نعت النعام وترك نعت الإبل فقال زهير [1] يعتسف بع عهدا –أي يأخذ في غير جهته –أي طريقا آخر من الشعر

فظل بوعساء الكثـب كأنه خباء على صقبي بوان مروق

فقال كعب :

تراخى به حب الضحاء وقد رأى سماوة قشراء الوظيفين عوهق

[1] :المصدر السابق. ص 7-8.

فقال زهير :

تحن إلى مثل الحبـابير حثم لدى منتج من فيضها المتفلق

ثم قال : أجز يا لكع ، فقال كعب :

تحطم عنها فيضها عن خراطم وعن حدق كالنبح لم يتفتق

فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثم قال : قد أخنت لك يا بني في الشعر

فلما نزل كعب وانتهى إلى أهله وهو صغير قال :

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع بعرض أبيه في المعاشر ينفق [2]

وهكذا نجح كعب في الاختبار وأقنع أباه بموهبته فأذن له بقول الشعر .

أ. <u>إسلام كعب بن زهير</u> :

أسلم كعب في السنة الثامنة للهجرة ، عقب منصرف الرسول عن الطائف وقد روى ابن هشام في السيرة قصة إسلام كعب على النحو التالي :

"ولما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم من منصرفه عن الطائف كتب بجبر بن زهير ابن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير بخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعري وهبيرة ابن أبي وهب قد هربوا في كل

[2] :المصدر السابق. ص 8.

وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله (ص) ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض وكان كعب بن زهير مخاطبا بجيرا وذاكرا إسلامه :

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت ليست بفاعل على أي شيء غير ذلك دلكا

على خلق لم ألف يوما أبا لـه عليه وما تلقي عليه أبا لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعا لكا

سقاك بها المأمون كأسـ ا روية فأنهلك المؤمون منها وعلكـا

قال : وبعث بها إلى بجير ، فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمع : سقاك بها المأمون " صدق وإنه لكذوب أنا المأمون .....

ثم قال بجير لكعب :

من مبلغ كعب فهل لك فـي التي تلوم عليها باطل وهي أحزم

إلى الله، لا العزى ولا الات وحده فتنجو إذ كان النجاء وتسلم

بدى يوم لا ينجو وليس بمقلب من الناس إلا طاهر القلب مسلم [1]

فدين زهير وهو لاشيء دينـه ودين أبي سلمى علي محرم

[1] :المصدر السابق.ص9-10.

قال ابن إسحاق : فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقالوا : هو مقتول .

فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لي فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله فاستامنه ، فذكر لي أنه قام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر لي أنه قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس إليه فوضع يده في يده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه [1]

قال فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم .

وفي هذا المشهد أنشد كعب قصيدته :"بانت سعاد" .

[1] كعب بن زهير "الديوان ".محمد يوسف نجم. ص 10 .

فلما فرغ من إنشاء القصيدة كساه الرسول صلى الله عليه وسلم بردة اشتراها معاوية بعد ذلك من أبنائه بعشرين ألف درهم وكان يلبسها هو والخلفاء من بعده في العيدين تبركا بها ولهذا لقبت القصيدة بالبردة

ولكعب بن زهير ديوان ينطوي على فخر وهجاء ومدح وغزل ورثاء وما إلى ذلك من الأغراض التقليدية وقد ذكر الرواة شعرا كثيرا لم يصل إلينا منه إلا القليل بالإضافة إلى قصيدة "البردة" يوجد شعر إسلامي آخر قال كعب منه مما يتصل بها قطعة قالها ترضية للأنصار وهو شعر تمتزج فيه القيم الإسلامية ببعض ما هو موروث عن التقاليد الجاهلية في المديح ، على أن الروح الإسلامية تبدو على نحو أجلي في أبيات يقولها بعد أن أسلم وحسن إسلامه وصلح شانه [2] وكذلك له قطعة أخرى في غزوة حنين والطائف وفتح مكة وله شعر آخر على غير هذه المواضيع التي ذكرناها قضى كعب ما تبقى من أيامه مشتركا في الصراع الأدبي القائم بين الأوس والخزرج ، وهو صراع قديم انتصر فيه كعب للأوس وبقي منتصرا الهم إلى أن توفي سنة 662م /24هـ [3] .

وقد تضاربت الآراء والأقوال عن مؤرخي الأدب العربي حول تعيين سنة وفاته ، فذكر بعضهم أنه توفي :24هـ/أي 644 م [1] وذكر بعضهم الآخر في سنة 26هـ /أي 645م [2]

ب. <u>شؤونه الشخصية</u> : كان كعب محارف محدودا مملقا لا يثمر له مال وهو يغزو ذلك إلى شؤم يخطه وهو يقول في ذلك :

لعمرك لولا رحمة الله إنـني لأمطو بجد ما يريـد ليرفـعا *

---

[2] : محمود علي المكي.أدبيات المدائح النبوية.الشركة المصرية للنشر.1991.ط1.ص 53-54 .
[3] : حنا الفاخوري . الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم . دار الجيل. بيروت–لبنان. 1986. ط1. ص 402.
[1] : الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري : ديوان كعب بن زهير. دار الكتاب العربي. بيروت. 1994 م ط .1 ص 20-21. نقلا عن جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربي. ج1. ص 87-158 .
* أمطو: أخذ وأمد ، الجد : الحظ، ركض ، اضطرب ، مرتكض الماء : موضع ، خناسير : الدواهي ولا واحد لها
[2] : المرجع السابق ص 20-21 نقلا عن الزركلي الأعلام .ج 5 .ص 226 .
* عرس الرجل : زوجه ، أذنتني : أعلمتني ، لم تعرج: لم تعطف ، لم تؤامر : لم تشاور ، جاهرت : أعلنت ، يصرم: يقطع ويدين الرجيع : المكرر ، أغادي : أباكر ، المعذل : الذي كثر لومه .

فلو كنت حوتا ركض الماء فوقه ولو كنت يربوعا سرى ثم قصعا
إذا ما نتجنا أربعا عام كفأة بغاها خناسير فأهلك أربعا
إذا قلت إني في بلاد مضلة أبى أن ممسانا ومصبحنا معا [3]

وبسبب فاقته التي يعروها إلى سوء الحظ ، كان كثير الخصام مع زوجته ، ولعل مما أجج هذا الخصام ، أنه نزل به أضياف فنحر لهم بكرا كان لها وامتدت خصومتها في قصائد عدة منها ما جاء في قوله :

ألا بكرت عرسي توائم من لحي وأقرب بأحلام النساء من الردى *
أفي جنب بكر قطعتني ملامة لعمري لقد كانت ملامتها تنى
ألا لا تلومني ويب غيرك عاريا رأى توبه يوما من الدهر فاكتسى
فاقسم لولا أن أسر ندامة وأعلن أخرى إن تراخت بك النوى[4]

وكذلك قوله :

إن عرسي قد أذنتني أخيرا لم تعرج ولم تؤامر أميرا *
أجهازا جاهزت لا عتب فيه أم أرادت خيانة وفجورا
ما صلاح الزوجين عاش جميعا بعد أن يصرم الكبير الكبيرا
فاصبري مثل ما صبرت فإني لا إخال الكريم إلا صبورا
أي حين وقد دببت ودبت ولبسنا من بعد دهر دهورا
ما أرانا نقول إلا رجيعا معادا من قولنا مكرورا
عذلتني فقلت لا تعذليني قد أغادي المعذل المخمورا [1]

---

[3] : ينظر ديوان كعب بن زهير : قرأه د/ محمد يوسف نجم .ص 49.
[4] المصدر نفسه.ص 14.

وهو يعلن في القصيدتين السابقتين أنه يخشى ملامة الناس واتهامهم إياه بالغواية إذ هجرها ، وبين في قصيدته الثانية عزمها على هجره وأنها آذنته بالفراق بعدما تقدم بهما السن

4. البردة (المصطلح والمفهوم):

تعريف البردة :

لغة : جاء في كتاب لسان العرب لأبن منظور في تعريفه لمصطلح البردة فيقول :

البردة : كساء يتلحف به ، وقيل :إذا جعل الصوف شقة وله هدب ، فهي بردة ، وفي حديث "ابن عمر": أنه كان عليه يوم الفتح بردة فلوت قصيرة ، قال "شمر" رايتا عرابيا بخزيمة وعليه شبه منديل من صوف قد اتزر به فقلت : ما تسميه ؟ قال بردة

"قال الأزهري" : وجمعها برد ، وهي الشملة المخططة ، قال "الليث": البرد : معروف من برود العصب والوشي ، قال : وأما البردة فكساء مربع أسود فيه صفر تلبسه الأعراب

وأما قول "يزيد بن مفزع الحميري "

وشريت بـردا ليـتني من قبل برد كنت هامه [1]

وهو يقصد بالبرد : اسم عبد وقوله :شريت : أي بعت وقولهم : هما في بردة أخماس فسره "ابن الأعرابي" فقال : معناه أنهما يفعلان فعلا واحدا فيشتبهان كأنهما في بردة والجمع برد و على غير ذلك ، قال "أبو ذئيب" .

فسمعت نبأة منه فآسـدها كأنهن، لدى إنسائه ،البرد[1]

يريد القول من هذا : أن الكلاب انبسطن خلف الثور مثل البرد ، وقول "يزيد بن المفزع " كذلك :

معـاذ الله ربا أن تـرانا طوال الداهر نشتمل البرادا [2]

---

[1] :المصدر نفسه. ص 31.

[1] :ابن منظور" لسان العرب". ضبط نصه خالد رشيد القاضي. دار صبح وإيديسوفت. بيروت– لبنان. 2006 م. ط1. ص350-351.

[1] : المصدر السابق : ص 350-351 .

قال "ابن سيدة": يحتمل أن يكون جمع بُردة كبرمة وبرام ، وأن يكون جمع بُرد كقرط و قراط وثوب بُرود ليس فيه زئبر وثوب بَـرِوَدَـ إذا لم يكن دفيئا ولا لينا من الثياب

وثوب أبرد: فيه لمع سواد وبياض بمانية

والبرد من الثياب وقال "ابن سيدة" أيضا :

البرد ثوب فيه خطوط وخص بعضهم به الوشي والجمع أبراد وأبرد وبُرود[3]

بالإضافة إلى هذا ورد في المعاجم اللغوية أن البردة كساء مخطط يلتحف به [4]

5. <u>قصيدة البردة</u> (شهرتها وقيمتها):

نالت قصيدة "البردة" شهرة واسعة ، وتصدى عدد كبير من علماء المسلمين لشرحها ، فمنهم من خمسها ومنهم من شطرها ، هذا وقد اهتم العلماء والأدباء لهذه القصيدة اهتماما فريدا ، و أولوها شيئا من التقديس والتكريم ، وتبارى الشراح في التعليق عليها ، والشعراء في معارضتها وتشطيرها وتخميسها ، ومن أشهر ما نظم في معارضتها قصيدة "البوصيري" ذخر المعاد في معارضة باتت سعاد" وقد أطلق عليها اسم "البردة" أيضا ، ومن أشهر شارحيها ابن هشام والباجوري ، وقد طبعها المستشرق الهولندي ليثه letté سنة 1748م مع شرح مستفيض بعد ان ترجمها إلى اللاتينية ووضع لها مقدمة مبسطة ، وطبعها مستشرقون آخرون ، ولكن أهم الطبعات طبعة رنيه باسيت R.Basset ، لأنها أحوى الطبعات واجمعها للروايات المختلفة ، وقد قدم عليها ببحث مستفيض في حياة كعب وبترجمة فرنسية للقصيدة[1] .

وبالإضافة إلى هذا الكلام "لحنا الفاخوري"فإن "بردة"كعب بن زهير تعتبر أشهر شعره على الإطلاق ، بل هي أشهر مدائح الرسول القديمة كلها .

---

[2] : المصدر السابق : ص 350-351 .

[3] :المصدر نفسه. ص 351.

[4] : د/ حسن حسين : ثلاثية البردة . دار الكبث القطرية . 1987 م.د ط . ص9.

[1] : حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي . دار الجيل . بيروت- لبنان. 1986 م. ط1. ص .403

وهذا يعود إلى المكانة المرموقة التي حظيت بها هذه القصيدة بين الأدباء والعلماء ، فحتى بروكلمان أحصى من شروحها ، ومن بينها شروح بالفارسية والتركية ، خمسة وثلاثين شرحا ومن تخميساتها ثلاثة عشر تخميسا ، وعددا كبيرا من معارضاتها وترجماتها إلى سائر اللغات [2] .

ومن بين الأسباب التي جعلت هذه القصيدة ترقى إلى العالمية بين الأدب هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم استحسنها وأعجب بها وقد رضا عن صاحبها فأهداه بردته لذلك سميت "البردة" لقد وهب الرسول صلى الله عليه وسلم بردته إلى كعب بن زهير، ثم في زمن معاوية اشتراها بثلاثين درهم وقال القبي بعشرين ألفا ، وهي التي يتوارثها الخلفاء ويلبسونها في الجمع والأعياد تبركا بها.

كما ذكر في خزانة البغدادي أن البردة النبوية بيعت في أيام المنصور الخليفة العباسي بأربعين ألف درهم ، وبقيت في خزائن العباس حتى مجيء المغول [3] .

وقد دارت قصيدة "البردة" لكعب بن زهير حول ثلاثة مضامين رئيسية نذكرها ولو بإيجاز وهي كما يلي :

مقدمة غزلية يصف فيها كعب بن زهير محبوبته "سعاد"فهو أسرف في وصفها كعادة الشعراء الجاهليين ، لأن المقدمة الغزلية برنتها الحزينة وصرخة ألمها الواضحة في مقاطعتها الكثيرة تدل على أن الشاعر الجاهلي يتغزل ليرثي نفسه ويصور بعض وجوه القلق حيث يجد في ذلك التصوير راحة نفسية [1].

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الناقة أو الراحلة التي توصله إلى الحبيبة فهي ليست كباقي النوق العادية ، هي سريعة ونجيبة تذهب به إلى الصحراء ، ويبحث عن تلك الحبيبة التي تخلت عته

---

[2] : محمود على المكي . أدبيات المدائح النبوية.ص 55 نقلا عن : تاريخ الأدب العربي ج1 .ص 156-162 .
[3] : ينظر: على فاعور . ديوان كعب بن زهير . دار الكتب العلمية. بيروت. 1998م.دط. ص 60.
[1] : عفيف عبد الرحمان. الشعر الجاهلي. حصاد قرن . دار جرير للنشر والتوزيع. 2007م.ط1. ص .818 .

وارتحلت ، ثم بعد هذا يسترسل الشاعر طريقه إلى اعتذار ومدح في المصطفى صلى الله عليه وسلم بأعظم أسلوب وصور فنية جيدة الصياغة .

وهذا ما سنراه في أقسام القصيدة وأهم ما تضمنته من استوفاء بالشرح والتفصيل .

كذلك يضيف إلى هذه القيمة التي حظيت بها قصيدة البردة من خلال منهج كعب الذي نهج عليه شعره وهو منهج جاهلي خالص وذلك واضح في ألفاظه و تعابيره وطريقة أسلوبه وهذا ما نذكره في قول "حنا الفاخوري " إذ يسهم هذا بالقول.

"نهج كعب بن زهير منهج الجاهليين في نظم الشعر ، ولا سيما منهج أبيه زهير حكيم الشعراء وخطة النابغة الذبياني شاعر المدح والاعتذار ، فكان كلاسيكيا جاهليا في أدق ما يكون التعبير وكان شاعر التأني والتنخيل وشاعر العقل الذي يوجه العاطفة والخيال توجيه سلطان ومقدرة وإنه وإن جارى من سبقه في الاستطراد التشبيهي ، وتفصيل أوصاف الناقة ، والافتتاح بذكرى الجيب وذكر الخمرة ، فقد نزع منزع الاقتضاب البليغ مما أكسب شعره انطلاقا مع الموضوع ، واقترابا إلى ما نسميه التسلسل الفكري وهكذا أتراه يفتتح قصيدته بذكرى سعاد ويتوقف عند قبح الإخلاف للعهد وكأني به يشير بذلك إلى ما يهدف في قصيدته من الحصول على الوعد الثابت والأمان الصادق ،ولا عجب في أن يفكر أعرابي هذا التفكير وهو لا يرى في الرسول إلا سلطان سيد قدير ، ثم ينتقل إلى الناقة للحاق بسعاد ، فيختار ناقة من أشد النياق سرعة وكمالا ولكنه لا يريد في الحقيقة سعاد ، وإنما يريد سعدا وسعادة في نيل رضى الرسول والنجاة من غضبه ، ولهذا تتحول الناقة السريعة إلى المدينة بعد تعب كثير ، وتخف لم يقم له فيه مجير ، وهناك يضع يمينه في كف من "قيله القيل" ويعتذر ما استطاع الاعتذار ويمدح ما استطاع المدح ،ثم يمدح المهاجرين من قريش لأنهم لم يقفوا منه موقف الأنصار في حضرة النبي بل كانوا له نعم الوسطاء ، وهكذا يتبين لنا ما في القصيدة من تلاحق فكري قلما نجده عند الجاهليين "[1].

بالإضافة إلى أننا نلمس في القصيدة بعض الجدة الفكرية وإن غلبت عليها النزعة التقليدية .

---

[1] : حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي . دار الجيل.بيروت – لبنان. 1986 م . ط1. ص 407-408 .

وهكذا فأن من الجديد أن لا تجير القبائل كعبا وقد ترامى عليها مستجيرا .

شنعى الوشاة جنابيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول [2]

ومن الجديد أن يفوه الأعرابي بالهدي والتنزيل وناقلة القرآن ، وهذا كله من كلام المسلمين :

مهلا هداك الذي أعطاك ناقلة القرآن فيه مواعظ وتفصيل [3]

ونجد كذلك من الجديد أن يكون الرسول نور هداية وسيفا يسله الله على أعدائه .

أن قيمة القصيدة كانت كبيرة لدى كل النقاد والأدباء بالإضافة إلى أن الرسول استحسنها وأعجب بها ،" ومما لاشك فيه أن الرسول أدرك ما في القصيدة من زلفى ، وما فيها من روح بعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه أعجب بالأدب الرفيع ، وأعجب باللهجة البدوية التي تخضع ولو عن غير عقيدة وأراد أن يكون مثالا للرحمة والإنسانية فعفا ونول [4]

هذا بالإضافة إلى قلة الشعور الديني في القصيدة ، إلا ما جاء في بعض الأبيات ومن الألفاظ الإسلامية نذكر: ناقلة القرآن ، رسول الله ، إن الرسول لنور سيضاء به ، سيوف الله،.....

فالشاعر حديث عهد بالإسلام ، بل هو لم يسلم إلا حفاظا على حياته ، وقد اهتم بتصوير ما تملكه من مشاعر الخوف لما كان يتوقعه من عقوبة ، أكثر مما اهتم بالتعبير عن إيمانه بالدين الجديد ، وأما مديحه للرسول ، فأنه لا يختلف عما لو كان متوجها به إلى سيد من سادات الجاهلية ، وهناك من شعر الصحابة ما هو أكثر حرارة وإخلاصا من قصيدة كعب ،فهذه ناحية لا نرى فيها للشاعر تميزا خاصا يسمو بها على غيره [1].

---

[2] :المصدر نفسه. ص 408.

[3] : المصدر نفسه. ص 408.

[4] : المصدر نفسه. ص 407.

[1] : محمود على المكي. المدائح النبوية. ص 55.

ولا بأس أن نعرج على قيمة هذه القصيدة إلى جانب جودتها من الناحية الفنية ،فأنه يوجد عاملين مهمين جعلا لهذه القصيدة تمتلك مكانة خاصة ، أحدهما متعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم والآخر متعلق بشخصية كعب –الشاعر– نفسه .

فأما العامل الأول فأنه يتمثل في سماحة خلق الرسول وإيثاره للعفو عمن جاءه تائبا منيبا ،فهو في سلوكه مع أصحابه وأعدائه يصدق قوله تعالى :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين "[2]

فقد كان خلقه عليه السلام القران كما قالت السيدة عائشة ، وما أكثر ما روت لنا كتب السيرة من أخبار حول عفو الرسول (ص) عمن استبلغوا في الإساءة إليه وإلى دعوته ، ومنهم شعراء كان صنيعهم شرا من صنيع كعب ، غير أنه ربما كانت الدلالة في خبر كعب أعمق منها في حالات غيره ، فالرسول لم يكتف بالعفو عنه بل زاد على ذلك أن وهبه من التكرمة ما لم يتسن لغيره فقد خلع عليه بردته التي آلت بعد ذلك إلى الخلفاء،ولا شك في أن هذه الهبة الجليلة كانت مما أسيغ على قصيدة كعب جلالا وقيمة خاصة [3]

و أما العامل الثاني المتعلق بشخصية كعب فيتجلى في التغيير الكبير الذي أحدثه فيه لقاؤه للرسول وما قابله من إحسان وتكريم ، فقد رأينا كيف كان قبل إسلامه –رجلا شريرا شرسا– و كيف كان سوء خلقه مثيرا لنزاع كبير بينه وبين امرأته مما سجله في شعره ، فإذا به بعد لقائه للرسول (ص) يسلم ويحسن إسلامه وتصلح حاله ، حتى كأن ذلك اللقاء كان عصا سحرية حولت نوازع الشر في هذا الرجل إلى خير محض ، بل نراه يتحول إلى داعية يحض قومه على التمسك بالإسلام ويدعو مشركي قومه إلى الدخول فيه [1] .

6. بناء قصيدة البردة :

تقع قصيدة البردة التي قالها "كعب بن زهير" في مدح الرسول (ص) (في سبعة وخمسين بيتا) وهي تبدأ على عادة الشعراء الجاهليين في نظم شعرهم "بمقدمة غزلية" في ثلاثة عشر بيتا ثم

---

[2] : الأنبياء/ 107.
[3] : محمود على المكي. المدائح النبوية.ص 57.
[1] : المرجع السابق. ص 57 .

ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة الغزلية إلى مقدمة أخرى تقليدية أيضا في " وصف الناقة "وهي تقع في عشرين بيتا وفي الأخير يختم قصيدته هذه باعتذار إلى النبي (ص) ثم يتبع هذا الاعتذار بوصف للرسول (ص) والذي يسمى "بالمديح النبوي "

لقد اشتهرت هذه القصيدة "بقصيدة البردة" نسبة إلى بردة الرسول (ص) التي خلعها ووضعها عل "كعب بن زهير" هذا الأخير "نشأ وتربى في بيت معروف في الجاهلية ،فرضع الشعر منذ نعومة أظفاره ، فقد وجد نفسه مشدودا بالحنين إلى الماضي ، وقد تمكن من نفسه هذا الماضي ، فلم يستطع الفكاك من إساره بسهولة ،وهو يحاول أن يتقرب إلى الرسول مادحا ومعتذرا بقصيدة "بانت سعاد" الشهيرة ، التي سار في نظمها على السنن المألوف في الشعر الجاهلي ، على الرغم من أن نظمها كان بعد فتح مكة وتحريم شرب الخمر تحريما نهائيا ، لذلك كان الموقف فريدا من نوعه في حياة الشاعر كعب بن زهير ، فهو المحكوم عليه بالإعدام من قبل الرسول بسبب هجائه له وللإسلام ، ولما ضاقت في وجهه الأرض بما رحبت ، ولم يجد ملاذا غير الاستسلام قرر أن يمثل بين يدي الرسول مقتدرا ومادحا بهذه القصيدة التي استهلها بالوقوف على الأطلال وتذكر ذكرياته مع محبوبته "سعاد" التي ارتحلت عنه وتركته يكابد عذاب الحب والهيام ثم يخرج من موضوع إلى موضوع ، ومن وصف الأطلال إلى النسيب والتشبيب فذكر الخمر وسحرها ، إلى المديح وما إلى ذلك من موضوعات المقدمة الطلية المعروفة وهو في ذلك يخرج من موضوع إلى آخر خروجا موفقا سلسا ، بحيث لا يشعر المتلقي بذلك الخروج ، ذلك لما يوفره من ارتياح نفسي لدى المتلقي"[1].

1.6 أقسام قصيدة البردة:

يوجد ثلاثة أقسام متعارف عليها لدى كل الذين تطرقوا إلى شرح هذه القصيدة وهي على التالي:

---

[1] :ينظر محمد مهداوي. جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2009 د ط. ص 25-26.

أ. المقدمة الغزلية:

وهي مقدمة كانت عادة لدى الشعراء الجاهليين التي تستهل بالوقوف على الأطلال،وتذكر الذكريات مع الأحبة و كانت ظاهرة المقدمة الطالية في القصيدة العربية القديمة، تشكل عنصرا فنيا هاما بما تتضمنه من صور متنوعة الطبيعة وحيواناتها ونباتها وأطلال سكانها حيث يفتتحون بها قصائدهم لتكمن تمهيدا إلى تتبع وتقبل ما يأتي بعدها ، والشاعر الجاهلي سيتحضر المرأة في شعره ويتغزل بها بوصفها محبوبة وأما وزوجة ، ومصدر الخصوبة واستمرار الحياة ، فيتداعى بها الفرح بالحياة والإحساس بالغبطة ، ومن ثمة تتحول المرأة في نظر الشاعر إلى رمز الحياة ، لمتعتها وجمالها ونعيمها ، ويتوزع الغزل فيها على محورين أساسيين هما: "وصف الحبيبة وصفا حسيا أو معنويا ، والتفني بجمالها الجسدي أو النفسي من ناحية وتصوير عواطف الشاعر ومشاعره ونحوها ، وما تجيش به نفسه من حب وفتنة ووجد ولوعة وهيام وحنين وأمثال هذه الانفعالات التي تملأ على العشاق نفوسهم من ناحية أخرى"[1]

وقد خطى كعب بن زهير نفس خطوات الشعراء الذين بدأت قصائدهم بمقدمة غزلية حيث أخذ يصف "سعاد" الحبيبة وصفا دقيقا لجسدها ومفاتنها تركت قلبه مولعا بها ووصف ثغرها ، مقامها وحتى ريق سعاد لم يخرج عن الوصف ، وجعل الخمرة ممزوجة بماء صاف في ثغر سعاد . وهذا الحب الشديد والهيام الذي عاشه من جراء هذه المحبوبة فهو يتعذب ويتألم مرارة هذا الحب حتى إنها هجرته إلى دار بعيدة لا تصلها النوق النجيبات وهذا ما سنراه في القسم الثاني.

ب.وصف الناقة :

لقد أنهى الشاعر "كعب بن زهير"مرحلة من مراحل القصيدة وهي مرحلة الوصف التي تذكر فيها صفات المحبوب سواء أكانت صفات حسية أم معنوية،فالأولى كحمرة الخد والثانية كرشاقة القد. إن الشاعر ينتقل من وصف الحبيبة إلى وصف الناقة وهذا الوصف يستوفي عشرين بيتا،وفي ثنايا هذا الوصف نجد تصويرا متكاملا للصحراء في ساعة الهجير عند اشتداد الحرارة،ولحركة

---

[1] :المرجع نفسه. ص26 نقلا عن د/ يوسف خليف . صور أخرى من المقدمات الجاهلية.المجلة9.القاهرة. ص 4.

الناقة الذائبة في ذلك الفيظ المهلك،حيث ارتحلت بالحبيبة إلى مكان بعيد لا يصله إلا النوق النجيبات والخيول الأصيلة وقد أسرف الشاعر في وصف هذه الناقة إسرافا فيه كثير من الغريب والتعقيد،والتشبيهات التقليدية المعروفة لدى الشعراء الجاهليين يتجلى ذلك في قوله :

ولن يبلغها إلا غذافرة فيها على الأين إرقال وتبغيل [2]

فهو يصف الناقة وما اعترض طريقها من الأين، والتعب ومعاناة السفر لتصل إلى تلك الأرض البعيدة .

لقد وصف الشاعر النوق وصفا دقيقا ليعبر عن عظمة الرحلة التي يريدها وأهميتها وخطورتها فلا تصلح لها الإبل الضعيفة،بل القوية ن هذا الوصف الذي بلغ به درجة عالية من الفن والجمال هذا الوصف يعبر به عن شدة شوقه إلى الرسول (ص) وذلك بوصف السرعة الهائلة التي تمضي بها الإبل .

إن كعب بن زهير إنما يصف ناقته بهذا الشكل فهذا بالاستعانة بالخيال لأنه يحاول الهروب من الواقع الأليم الذي ينتظره ، والتخلص من المعاناة التي هددت كيانه ، ولو للحظات قصيرة ، فراح يتوسل باللغة لإخراج ما يعتمل بداخله من خوف وقلق واضطراب نفسي لتجسيم هذه المعاناة وتقديمها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يعتذر إليه ويمدحه ويتمثل هذا في القسم الأخير من القصيدة .[1]

6.1 المديح النبوي:

لقد حضي المديح النبوي اهتماما كبيرا من قبل الشعراء فقد كان كثير الاهتمام به ومن بين هؤلاء الشعراء نجد كعب الذي راح يمدح النبي (ص) لكن الشاعر اعتذر ومدح الرسول (ص) بأسلوب جيد لكنه لم تتح له من السكينة والهدوء ما يسمح له بتأمل عميق لشخصية الرسول واستخلاص العبرة من سيرته وأعماله صلى الله عليه وسلم ، والشاعر كعب بن زهير أخذ في مدح الرسول

---

[2] : محمد مهداوي .جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم .ص .40.

[1] : المرجع السابق.ص 46.

عليه الصلاة والسلام ، مدحا فيه نوع من الاعتذار لأنه في أول أشعاره الجاهلية كان يهجو الإسلام والمسلمين ولما ضاقت به الأرض رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ يعتذر إليه حتى يسامحه على أفعاله لكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان متفهما وقد عفا عن كعب وهذا بدليل أنه خلع بردته (ص) ووضعها على كعب بن زهير .

لقد كان كعب في آخر قصيدته يعتذر إلى خاتم النبوة صلى الله عليه وسلم حيث أخذ يستعطفه ويسترق قلبه بأمله في أن يعفو عنه ، ويدعوه إلى أن يتثبت في أمره ، وهو الذي بل يقصي إلا بالحق ولا يهتدي إلا بهدى القرآن ، ولهذا فإنه يدعوه إلى إلى أن لا يأخذ بأقوال مبغضيه الذين يريدون الإيقاع به فهو يستمسك بحبل الرجاء .

ومن ثم يصف لنا هيبته من الرسول (ص) وما كان يخشاه من استقامة ، بل من موقفه أمامه وهو موضع المساءلة والامتحان ، فهو يرى هذا الموقف صعب جدا .

ثم يختم كعب قصيدته بأبيات يمدح فيها الرسول (ص) إلى أن يصل إلى البيت الأخير الذي أعجب به النبي صلى الله عليه وسلم وهو بيت يفيض عذوبة ونورا كما جاء في قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول [1] .

2.6 مضمون قصيدة البردة :

أ. المقدمة الغزلية:

إن الشعر الجاهلي لا يخلو من مقدمة غزلية إلا ما ندر منه وهي مقدمة تدور حول ذكر اسم المرأة حيث يتخذها الشاعر بطلة رئيسية لقصيدته ، ومفتاح سحري لفهم مضمون التركيبة الموضوعية للقصيدة وتفسير رموزها وفحص جوهرها العام ، وهذا ما سار عليه "كعب بن زهير" في قصيدته"بانت سعاد" والتي تسمى "بالبردة " فهو من الشعراء الذين يصفون محبوبتهم وصفا

[1] : محمود على المكي. المدائح النبوية . ص 408.

حسيا ، حيث استطرد وأفرط في وصف جسد محبوبته سعاد ، وهذا ما سنراه في المقطع الآتي من القصيدة الذي يتمثل لنا فيه مشهد جاهلي بدوي ركبه الشاعر تركيبا لا يخلو من حذق وفن ، إنه مشهد سعاد التي طعنت وتركت في قلب حبيبها ألف مرض يقول "كعب بن زهير" في هذا الصدد :

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول مشيم إثرها لم يفد مكـبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلـة عجزاء مدبـرة لا يشتكي قصر مـنها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل للراح مـعلـول
شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مسلول
تجلو الرياح القذى عنه وافرطه من صوب غاذية بيض يعاليـل
يا ويحها خلـة لو أنها صدقت ما وعدت أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلـة قد سبط من دمـها فجع وولـع وإخلاف وتـبديل [1]
فما تدوم على حـال تكون بـها كما تلـون فـي أثوابـها الغول
وما تمسك بالوصل الذي زعمت إلا كما تمسك الماء الغرابيـل
كانت مواعيد عرقوب لـها مثـلا وما مواعيدها إلا الأباطيـل
أرجو وآمل أن يعجلن في أبـد وما لهن طوال العمر تعـجيل
فلا يغرنك مـا منت ومـا وعدت إن الأماني والأحـلام تظـليل[2]

لقد فتح "كعب بن زهير " قصيدته بذكر اسم سعاد –الحبيبة– ووصفها ، ففي صوتها غنة زادتها جمالا وأنوثة وفي عينيها كحل زادها جمالا ، ثم يدفع به الوجد والاشتياق والحنين إليها إلى تشبيهها بظبي جميل العينين –لا يشبه الضباء البرية– رخيم الصوت ، لأنه من صنع خيال الشاعر ، لذلك أضفى عليه ملامح بشرية ، ففي صوته بحة محببة الاستماع ن ثم يستحي

---

[1] : كعب بن زهير" الديوان" . قرأه د/ محمد يوسف نجم.ص 84-85.
[2] :المصدر نفسه. ص 85.

فيغض الطرف ، وهو في حضرة الرسول (ص) يصف ثغرها الذي يبدو فيه عذبة إذا ابتسمت جمال ثناياه وطيب رائحته ، حيث انه يصرح أنها إذا ابتسمت فإنها تكشف أسنان بيضاء لامعة ذات ريق عبق الرائحة ولذيذ الطعم ، وكأنه سقي بخمر ممزوجة بماء صاف نقي وهكذا استطاع الشاعر أن يزج الخمرة في مطلع قصيدته على عادة الكثير من شعراء الجاهلية ، وراح يجعلها في ثغر سعاد لا في الزقاق والدنان كما كان يفعل بعض الشعراء وهذا الفعل الذي جاء من كعب كان اتقاء لغضبة الرسول الذي قال في أحاديثه عن تحريم الخمرة وهذا التحريم إنما جاء من قبل الله تعالى في الآية الكريمة "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" [1]

ونحن نعلم أن الخمر حرمت بالتدريج لن الناس كانوا مغرمين بحبها كلفين بها فجاء تحريمها أولا في سورة البقرة على وجه فيه مجال للاجتهاد أي يتركها من لم تتمكن من نفسه ، ثم جاء تحريمها في سورة النساء ، بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، إذ نهى القرآن عن القرب من الصلاة في حال السكر ، ثم نزلت الآية بتحريم شربها تحريما نهائيا في سورة المائدة [2] .

ومن خلا هذا فإن كعب بن زهير كان جاهليا في روحه ومسلما في ظاهر قوله .

ثم يسترسل الشاعر ويصل ذلك الوصف الذي قدمه بالحديث عن هذه الصاحبة التي لا تعطي وعدا إلا و أخلفته، فكلما ضربت له موعدا للقاء لم تف بذلك ، وتحججت له بحجج منعتها من لقائه، حتى صار ذلك أمرا مألوفا لذيه، فوصف مواعيدها كالغرابيل التي لا يرجى منها أن تمسك الماء، فهو لا يتمسك من وصلها إلى بحبل واه رث، ولا شك أن تخلفها عن مواعيدها كان يزيد نار حبه لها اشتعالا وتأججا، والشاعر قد تأكد من استحالة لقاء محبوبته التي اشتهرت بخلف الوعود فصار في حالة نفسية مضطربة من جراء ما لحقه من حبيبته سعاد ، فقد خاب

---

[1] : سورة المائدة / 90.

[2] :محمدمهداوي. جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم. ص19-29.نقلاعن تفسيرالمراعي.دارالفكر بيروت.دت.دط.ص19-29.

أمله ، ثم بعد هذا يعود إلى رشده مما هو فيه من قلق واضطراب نفسي ليهون على نفسه وهذا في البيت التالي :

فلا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأماني والأحلام تظليل [3]

فهو يهون ويصبر نفسه بان لا ينخدع ولا يفتر بمواعيد سعاد فإن ذلك كله تظليل وكذي ولا يمكنه ان يتحقق ولا سيما وهي قد ارتحلت إلى أرض بعيدة لا تصلها إلا النوق السريعة والنجيبة والأصيلة ، النفيسة الخفيفة وهذا ما سنراه في المقطع الذي يلي المقطع الأول الذي تحدث عن التغزل بالمرأة والتغني بمفاتنها الظاهرية وجمال نفسها وروحها ووصف حب الشاعر لها ، وهو في المقطع الثاني إنما يريد وصف الناقة بكل ما تتميز به هذه الأوصاف التي ذكرها الشاعر في محبوبته "سعاد" لا يجوز نكرانها لأن الشاعر قد صرح بها لكونه ابن البيئة الجاهلية يتغزل بحبيبته كما يريد وكما يشاء ولأن شعراء تلك الفترة لا تخلو مقدماتهم من منظر الرحيل والوداع وهذه عادتهم في شعرهم القديم ، لكن هناك تأويل آخر وقراءة أخرى توصل إليها أحد الكتاب في "قصيدة البردة " لكعب بن زهير وبالضبط في قضية " المقدمة الغزلية" فيذكر ذلك بالقول :

"إن الوقفة التي أريد أن أقفها مع مطلع هذه القصيدة والرأي الذي أقدمه حول محورها وموضوعها ينطلقان من تصور رسمته أحداث القصيدة وأبياتها ومناسبتها ، حين نرُدُ ذلك إلى منهاج الله وحين نفهم الواقع والأحداث من خلال منهاج الله ، إني أومن أن مطلع القصيدة ومحورها يحملان موضوعا ينأى عن التشبيب والغزل في موقف ينافي التغزل وأسبابه ، مهما كان عادة الشعراء العرب من افتتاح قصائدهم ، فهذا موقف جديد لم يعرفه شعراء العرب ، خارج عن عادتهم التي ألفوها ،وهو موقف أجل من كل موقف عرفه شاعر قبل ذلك وكان " كعب بن زهير "يدرك ذلك حق الإدراك ، ويدرك أن عليه أن يتخير أطيب أسلوب يخاطب به النبوة الخاتمة ،وأطهر كلمة يقولها بين يدي الرسول (ص) فلا يعقل أن يبتدئ إيمانه بعظمة الإسلام بالتشبيب بفتاة حقيقية أو خيالية ، وكذلك فلم يكن النسيب عادة مفروضة في مطلع كل قصيدة

---

[3] : كعب بن زهير"الديوان" . قرأه د/ محمد يوسف نجم. ص 85.

عند العرب فكثير من الشعراء لم يبدؤوا به ، واختاروا أسلوبا آخر أقرب للمناسبة والجو الذي تقال فيه ، وذلك نحو معلقة لبيد بن ربيعة العامري :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامـها
فمدافع الريان عُري رسمها خلقا كما ضمن الوُحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامـها [1]

ولذلك لسنا ملزمين أن نفترض أن قصيدة "كعب " يجب أن تبدأ بالغزل والتشبيب لمجرد إتباع قاعدة التزمها بعضهم ولم يلتزمها آخرون، وأمر آخر وهو أن كعبا كان في حالة نفسية قلقة مضطربة خائفة ، وفي معاناة شديدة قاسية ، وفي عزلة مهلكة وخطر حقيقي يتهدد حياته ، فأنى له أن يفكر في الغزل والتشبيب في هذه الظروف ، وأنى له أن يفكر في النساء وغرامهن ولهوهن ووصف أجسامهن؟! كلا ! إننا نؤمن أنه كان في حالة فكرية نفسية تبعده كل البعد عن أجواء الغزل والنسيب والتشبيب، ونؤمن كذلك أن القصيدة لابد أن تخرج من حقيقة المعاناة التي يمر بها، وأن تعرض القضية الحقيقية الجديدة التي يعيش بها وأن تصور هذه المعاناة وتلك الحقيقة تصويرا أمينا يعبق بالصدق وجلاء الشعور ووضوح الموقف ، حتى يلمس رسول الله صلى الله عليه وسلم عظمة التصوير وعبقرية الفن المؤثر ، وأمانة الصدق الفواح من كلماتها لتكون هي الرسالة الحقيقية التي يريد أن يبلغها رسول الله من خلال تصوير فني مبدع متميز ، ولعل الله سبحانه وتعالى أعان كعبا في ذلك ن فجاءت القصيدة روعة فنية وإبداعا عبقريا ، شغل الأدباء المسلمين على مر العصور ، وأثار إعجاب النبي (ص)" [2]

ويضيف قوله السابق بالقول :

---

[1] : محمد بن سعد بن حسين . المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة. مطابع الفرزدق التجارية الرياض. 1996 م. ط1. ص 40.
[2] :المرجع نفسه.ص 45.

"نود أن ننفي أولا وجود فتاة حقيقية كان يحبها كعب ، فجعل حب هذا مطلع القصيدة ، ننفي ذلك لأنه لو كان هناك هذا الحب في حياته لعُرف قبل ذلك،ولتغزل بها قبل هذا الموقف ، ولدار بها شعره ، ولو كان مطلع القصيدة يشير إلى غزل حقيقي في فتاة حقيقية لنهاه رسول الله عن ذلك كما نعتقد ونؤمن ، فمن ذا الذي يجرأ أن يعرض حبه وغزله وتشبيبه على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في موقف التائب العائد برسوله،النازع إلى الإسلام بعظمته وجلاله،لابد أن يختار كعب أسلوبا يناسب إيمانه الجديد ، نابعا منه لا من التقاليد الجاهلية التي تركها ، أسلوب يناسب مقام النبوة وعظمة رسالة الإسلام ، وأنى للغزل والتشبيب أن يلائم ذلك .

ولابد لنا من أجل فهم القصيدة ومطلعها ومحورها ، أن نعيش مع كعب رضي الله عنه لحظات نتابع فيها نفسيته وفكره ، وخوفه وقلقه وأحلامه وآماله ، من خلال الأحداث التي سبق عرضها والأخطار التي أحدقت به والمصير الذي آل إليه "[1] .

لقد كانت قصيدة كعب بن زهير تتضمن مقاطع مهمة فأولها يشير فيها إلى أن البيت الأول من مطلع القصيدة إنما يعلن فيه ابتعاد دنيا الجاهلية وغيابها عنه ، مع ما كان يحمل لها من حب لم يكن قد تحرر منه بعد .

أما الأبيات التي تلي البيت الأول فتدور حول وصف جمال هده الجاهلية ، وصفا يمثلها بفتاة جميلة القوام ، واعتدال الطول والصوت ، والطرف والثغر وغير ذلك من مفاتن هذه الفتاة وهذا الوصف يستحق الأبيات الخمسة التي تأتي بعد الأول ، فما كانت هناك فتاة في حياته رحلت عنه وتركته وهو يحبها إلا الجاهلية ، ثم بعد هذا يكتشف كعب أمرا مهما هو أن الجاهلية التي عاشها باتت إلا أن تغدر به وتكذب وتخلف كل الوعود التي قطعتها فهي دنيا جاهلية أخذت تكتشف له سوآتها وشرورها ومصائبها من فجع وولع وإخلاف وتبديل ، هذا الأمر قد خص الأبيات الستة المتتالية على الترتيب .

---

[1] : ينظر المرجع السابق ص 45.

ونجد بأن فجع ومصائب دنيا الجاهلية وغدرها لكعب وإخلاف الوعود وكأنه بلغه وصف القرآن الكريم للدنيا ، في الآية الكريمة : قال الله تعالى :

" يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " (1)

فكأن "كعب" قد سمع هذه الآية وأمثالها في كتاب الله فقال :

" فلا يغرنك ما منت وما وعدت" إنها الدنيا وأحوالها ، وما فيها من أماني وأحلام ،لا تزيد عن غرور وتضليل ، فلا تدوم على حال ، ثم يمر كعب إلى وصف الناقة وكيفية الوصول إلى تلك الجاهلية التي وصفها بفتاة جميلة .

ب. وصف الناقة :

في هذا القسم الثاني من القصيدة يتمثل لنا وصف للناقة وهو أقرب ما يكون من كلام "طرفة" لغة وانطلاقا ، وأقرب إلى كلام "النابغة" تشبيها وتمثيلا ، ومن كلام "زهير" تصويرا وتجسيما إنها الجاهلية في حيوانها وصحاريها ، في حرها وجفافها ، في تقاليد أهلها وعاداتهم ، إنه تصوير لجو جاهلي في لوحة حسية تلمس فيها الروح والحياة ، وتلمس فيها اندفاق الشاعر في ما يروق أسياد القبائل ، وفي ما يهيج عاطفة الجاهلي إعجابا وإكبارا (2)

إن هذا الوصف كان على أسلوب الجاهليين في الوصف للناقة أو المطية ، وفي ثنايا هذا الوصف نجد تصويرا رائعا للصحراء في ساعة الهجير عند اشتداد الحرارة ، ولحركة الناقة الدائبة في ذلك القيظ المهلك ، وهذا الوصف لا يخلو من إيحاءات لها دلالتها القوية .

يقول "كعب بن زهير " في هذا الشأن :

---

(1) : سورة لقمان / 33.

(2) : حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي.ص 405 .

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة فيها على الأين إرقال وتبغيل

من كل نضافة الذفرى إذا عرفت عرضتها طامس الأعلام مجهول

ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق إذا توقدت الحزان والميل

ضخم مقلدها فعم مقيدها في خلقها عن بنات الفحل تفضيل

حرف أخوها وأبوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شملـيل

يمشي القراد عليها ثم يزلفه منها لبان وأقراب زهالـيل

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول

كأن ما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللجين برطيل

تمر مثل عسيب النخل ذا خصل في غارز لم تخونه الأحاليل

قنواء في حريتها للبصير بها عتق مبين وفي الخذين شهيل

تخذي على سيرات وهي لاحقة ذوابل وقعهن الأرض تحليل

سمر العجايات يتركن الحصى زيما لم يقهن رؤوس الأكم تنعيل

يوما يظل به الحرباء مصطخما كأن ضاحيه بالنار مملول

كأن أوب ذراعيها وقد عرفت وقد تلفع بالقور العساقيل

وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ورق الجنادب يركضن الحصى قيلوا

شد النهار ذراعا عيطل نصف قامت فجاويها نكد مشاكيل [1]

نواحة رخوة الضبعين ليس لها لما نعى بكرها الناعون معقول

تغري اللبان بكفيها ومدرعها مشفق عن تراقيها رعابيل

---

[1] : كعب بن زهير :الديوان . قرأه د/ محمد يوسف نجم. ص 86،87 ،88.

يسعى الوشاة بجنبيها وقولــهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتـول [2]

ينتقل كعب بن زهير من وصف شيء إلى شيء آخر وهنا يصف " المطية" وكيف تصل إلى "سعاد" محبوبته وهذا ما نراه في هذا البيت إذ يقول :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ثم يصف هذه "الناقة" وصفا دقيقا ، فلا يترك جانبا أو عضوا أو حركة إلا وصفها ، فهي ناقة صلبة غليظة تمتلك من القوة ما يجعلها تتفوق على غيرها من النوق والمطايا ، وهي من شدة سرعتها وما تبذله من جهد في سيرها ، اخذ العرق يفور من خلف اذنيها ، وهذا أمر غير مألوف في النوق ، وإنما أراد الشاعر بهذا الوصف أن يجعل من هذه الناقة نوعا مختلفا عن النوق العادية ، مما يوحي بصعوبة أو استحالة الحصول عليها لتوصله إلى محبوبته ، وهذا ما يزيده يأسا وتحسرا على فقد أنها إلى الأبد وليس له وسيلة للتعويض وإعادة التوازن ، إلا عن طريق تداعيات ذكرياتها ، ووصف كل شيء يوحي له بها مطيتها ، طريقها ، الحيوانات التي تشبهها في بعض ملامحها وهلم جرا [1] .

إن وصف "كعب بن زهير" للناقة إنما هو وصف تعريف تمتزج فيه الواقعية بالمثالية ، والدقة الجزئية بالعرض العام الكلي ، فهي المطية التي يرحل عليها في كل مرة وهي وحدها التي يستطيع أن يخرج بها إلى المسالك الوعرة ، والطرق المجهولة ، ويشبهها بالحمار الوحشي والثور البري في البيت "الحادي والعشرين " إذ يقول :

عيرانة قذفت في اللحم عن عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول [2] .

وهو يقصد "بعيرانة" (حمار الوحش) لصلابتها ، إنه يشبهها بقطعة بارزة من الجبل في صلابتها ويذكر أن أخاها أبوها في النسب، كذلك عمها خالها ليدلل على عراقة أصلها ونقاء سلالتها .... وجلدها أملس ناعم إلى الحد الذي لا يستطيع معه القراد– وهي حشرة تتعلق بالبعير ونحوه وهي

---

(2) :المصدر نفسه.ص 88 ،89.

(1) : محمد مهداوي. جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم .ص 43 .

(2) : كعب بن زهير :الديوان ، قرأه د/ محمد يوسف نجم .ص 87.

كالقمل للإنسان– أن يستقر على صدرها وخاصرتها .... وهي تشبهفي قوة بنائها ونشاطها وسرعتها حمار الوحش ، أما ذيلها فهو غزير الشعر طويل ، مثل عسيب النخل ، ويذكر لنا كعب بأنها لم تلد وغنما بقيت حائلا محافظة على قوة جسمها ، وعدم انتقاص نشاطها وحيويتها [1] .

كما يشبه الناقة في سرعتها بامرأة فقد ولدها البكر، فباتت كثيرة النواح والبكاء لشدة ما بها من حزن وهذا في البيت "الحادي والثلاثين" وبفقده فقدت وعيها ، فلم تعد تعي ما تصنع فقامت بتمزيق قميصها ، وكشف ترافيها وهذا في البيت "الثاني والثلاثين" ويقول :

نواحة رخوة الصبعية ليس لهـا لما نفى بكرها الناعون معقول

تفري اللبان بكفيها ومدرعـها مشقق عن ترافـيها رعابيل [2]

حيث يقصد بهذا البيت الأخير أنها تشق الثياب عن اللبان أي الصدر وما حوله ، والترافي هما عظمتان عن يمين الصدر وشماله.

إن هذه الأوصاف التي أمطر بها الشاعر ناقته الموعودة لا تمثل حقيقة وواقع الناقة المعروفة ، وإنما هي أوصاف امتزجت فيها الحقيقة بالخيال ، والوعي باللاوعي ، و اللغة بالانفعال ، ولعل السبب الذي جعل الشاعر يحلق في عالم الخيال هو الهروب من الواقع الأليم الذي ينتظره والتخلص من المعاناة التي هدت كيانه ، ولو للحظات قصيرة لأنه سرعان ما يهجم عليه الحزن من جديد ، إن هذا الوصف الذي أفره الشاعر في وصف الناقة إنما هو رمز إلى معاناة في سبيل الوصول إلى الرسول (ص) وبعد هذا الوصف الذي كان وصفا دقيقا ما يلبث الشاعر إلى أن يلج إلى موضوعه فيصل كلامه عن ناقة بالحديث عن أصحابه المحيطين به ، وهم يتنبأون له بسوء المصير ، فهو مقتول لا محالة ، ويتخلى عنه كل من علق عليهم الأمل من أصدقائه فهم مشغولون عنه لا يملكون له نفعا، وحينئذ لا يرى مفرا من مواجهة مصيره وحده، فهو بعد

---

[1] : محمد مهداوي. جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم. ص 45،46. نقلا عن دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام. د/ زكرياء عبد الرحمان صيام. ديوان المطبوعات الجامعية 1984 م د ط. ص 122، 124.

[2] : كعب بن زهير :الديوان . قرأه د/ محمد يوسف نجم .ص 88، 89.

ذلك يدعوهم أن يتركوه وشأنه، فكل ما قدره الله كائن لا مرد له، وهو يختم هذا التأمل بحكمة يقول فيها إن غاية كل إنسان الموت ، وأن يحمل على أعواد نعش يفضي به إلى مثواه الأخير وهذا ما يمثل الأربع أبيات التالية :

يسعى الوشاة بجنبيها وقولـهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
وقال كل خليل كـنت آملـه لا أفنيـنك إني عنك مشغول
فقلت خلوا طريقي لا أبـا لـكم فكل ما قـدر الرحمان منفعول
كل ابن أنثى وإن طالته سلامتـه يوما على آلة حدباء محمول [1]

وهو يقصد بالآلة الحدباء النعش المقوس لأن الإنسان مصيره الموت في هذه الحياة الفانية ، فهو بعد أن كان جاهليا في روحه أخذ يعدل في كلامه إلى كلام المسلمين مستسلم وخاضع لسنة الموت .

ويصرح بعد ذلك بسبب هذا الفرع القاتل الذي استولى عليه ، فهو وعيد الرسول له ، غير انه يستمسك بحبل الرجاء ، فيستعطفه ويسترق قلبه بأمله في أن بعفو عنه ويدعوه إلى أن يثبت في أمره ، وهو الذي لا يقضي بالحق ولا يهتدي إلا بهدى القرآن ، ولهذا فإنه يدعوه إلى أن لا يأخذ بأقوال مبغظيه الذين يريدون الإيقاع به .

والشاعر "كعب بن زهير" في هذا وإنما يعتذر ويمدح الرسول (ص) وهذا ما سوف نراه في الأبيات التي خصها في مدح الرسول (ص) .

ج. <u>المديح النبوي</u>:

وهنا "كعب" يمدح أشرف خلق الله وهو " النبي محمد صلى الله عليه وسلم" وذلك بأحسن الصفات ، وكذلك هو جاءه معتذرا عما بدر منه من قبح القول يقول في هذا :

أنبئت أن رسول الله أوعدنـي والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك ناقلة ال قرآن فيها مواعيـظ وتفصيل

---

[1] : المصدر نفسه.ص 89.

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى واسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل
مازلت أقتطع البيداء مدرعا جنح الظلام وثوب الليل مسبول
حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نقما تقيله القيل
لذاك أهيب عندي إذ اكلمه وقيل إنك مسيور ومسؤول [1]
من ضغيم من ضراء الأسد مخدرة ببطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما لحم من القوم معفور خراديل
إذ يساور قرنا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مغلول
منه تظل حمير الوحش ضامرة ولا تمشي بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة مطرح البز والدرسان مأكول
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول [2]

من الواضح أن الشاعر في هذه الأبيات يصف قوة أمله بلقاء الرسول (ص) ، وتفرق أصحاب الجاهلية عنه ، وكذلك يذكرنا بأسباب تركه ذلك الحب الغادر الضال وهو حب الجاهلية التي انكشفت له ، ويذكرنا كذلك بإقباله على الإسلام بعزم ويقين وصدق وهذا ما يدل في الأبيات التي أتى يستغفر بها إلى الرسول (ص) مادحا إياه بأسمى المعاني.

يأخذ الشاعر في استعراض قضيته أمام مجلس الرسول والرسول يستمع إليه بدءا بما فعل الواشون ، ومرورا بوصف الرعب الذي هد كيانه وكاد أن يوقف أنفاسه ، لولا رجوعه إلى القيم

---

[1] : كعب بن زهير :الديوان .. ص 89 ، 90.
[2] :المصدر نفسه.ص 90.

الإسلامية ، وتمسكه بمبدأ القضاء والقدر وأن مصير كل حي إلى نهاية، ويتضح ذلك في قوله :

كل ابن أنثى وإن طالته سلامته يوما على آلة حدباء محمول[1]

وهذا يدل على الثقافة الإسلامية الشاملة التي تطلع عليها كعب حيث تمثل هذا حينما ازداد قوة وإيمانا بقضاء الله وقدره،عندما عرف أن العفو من شيم الرسول(ص) وانه (ص) قد عفى – فعلا– عن كثير من المحكوم عليهم أمثاله ثم يتقدم الشاعر إلى مجلس الرسول طالبا منه أن يتروى ويتأنى ويمحص في الأمر ويدقق في البحث عن الحقيقة ، قبل إصدار الحكم عليه يتجلى ذلك في قول الشاعر :

مهلا هداك الذي أعطاك ناقلة ال قرآن فيها مواعيظ وتفصيل[2]

وهو يطلب العفو والصفح عنه يقول في صدد هذا :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول[3]

ثم يكرر الطلب ملحا على عدم الأخذ بأقوال الوشاة :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل[4]

فالشاعر يحرص كل الحرص على أن يضع الحقيقة بين يدي الرسول (ص)،ليقرر –بعد ذلك– ما هو فاعل به ، فكل من حوله من أصدقاء وأقارب قد تخلوا عنه ناكرين له، حتى أقاويل الوشاة التي نقلت غلى الرسول (ص) كانت له بالمرصاد ، فما على كعب إلا أن يذهب غلى الرسول (ص) ويطلب منه العفو عما بدر منه من جهل بالدين وطيش في اللسان ، فهو قد اعترف أنه سمع من الوشاة ، من التخويف والتهويل والوعيد ما سمع ، وتحمل كل هذا ما يعجز الفيل بضخامته عن تحمله ، وهذا ما كان في كلامه من عبارات الخوف والفزع والقلق ، وهو

---

(1) :المصدر نفسه.ص 89.
(2) : كعب بن زهير :الديوان ، قرأه د/ محمد يوسف نجم.ص 89.
(3) : المصدر نفسه. ص 89.
(4) : المصدر نفسه. ص 89.

هكذا وقد ذهب إلى الرسول (ص) بأوصاف مثلها بأسد ضار ، وقد تمادى في وصف هذا ، فقد شبه موقفه وهو واقف أمام رسول الله بأنه أهيب وأشد فزعا في قلبه ، من وقوفه أمام أفتك وأشرس الأسود ، وأكثرها ضراورة فهو الذي يسكن وادي ولا تجرؤ الحيوانات الاقتراب منه وهو هنا موضع المساءلة والامتحان ، فهو يرى أن مثل هذا الموقف أشد من لقاء أسد ضار كامن في غيظه (عثر) الملتفة الشجر ، وهو أسد لا يبحث عن صيد لرزقه فحسب ، بل كذلك لرزق شبلين له لا طعام لهما إلا من لحم من يمر في طريقهما من المسافرين أو من ضروب الحيوان ولهذا فإن الناس لا يعملون على تجنب الاقتراب من عرينه ، أما حمير الوحش فإنها إذا من واديه حبست أنفاسها وظلت ساكنة حتى لا تستشيره ، ومع ذلك فلا يخلو الأمر من جاهل بأمره أو مفرط في الثقة بنفسه ، يوقعه سوء حظه في المرور بفيل ذلك الأسد ، فإذا به فريسة سهلة لا يبقى منها إلا ثبات وخرق ممزقة [1] .

فالشاعر يصور هنا هيبته من الرسول (ص) وما كان يخشاه من انتقامه .

ثم ينتقل بسلاسة الأفكار إلى مدح الرسول (ص) فهو يمضي في مدحه حتى يقول في لبيت الذي يفيض عذوبة ونورا :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول [2] .

فالرسول نور هداية إلى الناس وسيف يسله الله على أعدائه وعندما وصل كعب إلى هذا البيت : شوهد الرسول يتحرك كأنه يومئ إلى من كانوا معه صلى الله عليه وسلم بالمجلس أن يستمعوا جيدا إلى قول الشاعر ، وهذا يدل على إعجابه بهذا البيت ، ثم بلغ به الإعجاب مداه عندما واصل الشاعر في مدح المهاجرين والرسول منهم ، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن كسا كعبا ببردته تعبيرا عن رضاه وإعجابه [3].

---

[1] : د/ محمود على المكي : المدائح النبوية. ص 52.

[2] : كعب بن زهير :الديوان . قرأه د/ محمد يوسف نجم .ص 90.

[3] :محمد مهداوي .جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم. ص 98 .

والشاعر هنا يبين أن الرسول (ص) صاحب رسالة حملها إلى الناس ليهديهم الصراط المستقيم وأنه نبي يكتنفه نور الحقيقة والحقيقة أفعل في النفوس من السيف في الأجساد ، والصورة رائعة في إيجازها وفي حسن تمثيلها للحقيقة النبوية التي تنطق بسلطان وقوة .

ونمثل صفات الرسول كما يلي :

- نور ساطع (الإخاء والمحبة والإيمان والمساواة)(يتمثل في البيت "الخمسين")
- مبدد الظلام والجهل والحقد والكراهية في "البيت الثاني والأربعين"
- ذو عفو ورحمة وعدل (ويتمثل هذا في البيت "البيت السابع والثلاثين")
- سيف في رقاب الكفار والطغاة المستبدين (وهذا ما سنراه "في البيت الخمسين"

بالإضافة إلى هذا البيت يوجد بيت يمدح فيه الشاعر الرسول (ص) إذ يقول:

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نقما تقيله القيل [1]

فهو هنا لا يهدأ له بال حتى يضع في يد رسول الله (ص) معاهدا ومعترفا برسالته ، ومقرا بأن قوله الحق ، بعد ذلك كله يأمن على نفسه ، ويعيش في استقرار .

ويتابع الشاعر مدحه للرسول بأفضل الكلمات وأنقى التعابير، ثم يخص المهاجرين بالثناء، فقد أصاب في ذلك حين وصفهم بأوصافهم الحقيقية التي يتصفون بها ، فهم الذين ضحوا بكل شيء من أجل حماية الرسول ، وتوطيد دين الله على الأرض ، فهم قمة الشجاعة والتضحية حيث ير فيهم إلا الشدة والعنفوان ، ولم ير عليهم إلا سوابغ من نسج دواد ويشير إلى خروجهم من مكة إلى المدينة لا خوفا ولا تهيبا للقتال يقول كعب في هذا :

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
شع العرانين أبطال لبوسهم من نسج دواد في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول

---

[1] : كعب بن زهير :الديوان . قرأه د/ محمد يوسف نجم ..ص 90.

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

لا يفرحون إذا نـالت رمـاحهم قومـا وليسوا مجازيفا إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا فـي نحورهـم ما إن لـهم عن حياض الموت سبيل [1]

ويواصل الشاعر مدحه للمهاجرين بأسلوب غاية في الدقة فهم أبطال متمرسون بالمعارك ، يقون أجسادهم بدروع ضافية مجدولة الحلق ، فإذا ساروا إلى الحرب مشوا في قوة وشموخ ولهم من رباطه الجأش وثبات الجنان ما يجعلهم وقورين ، لا يستخفهم الانتصار على الأعداء ولا يجزعون إذا أصابهم قرح ، وهم دائما يقبلون على القتال ولا يولون الأدبار ولهذا فإن الطعن لا يقع إلا في صدورهم ، حيث بين أنهم لا يفرحون عند نصرهم لأنهم تعودوا على ذلك حتى أصبح أمرا مألوفا لديهم ، ولا يحزنون عند الهزيمة لأنهم يعلمون أن الحرب سجال فيها المنتصر وفيها المنهزم ، وأن النصر سيكون حليفهم في نهاية الأمر .

ويمكن تبيان صفات المهاجرين بهذا الشكل:

صفات المهاجرين:

1. أقوياء أشداء
2. شجعان لهم عدتهم لكل حرب
3. يواجهون العدو بصدورهم ولا يولون الأدبار
4. النصر والهزيمة عندهم شيئان (النصر=الهزيمة)

إن كعب بن زهير في قصيدته قد سلك طريقين الأولى : هي النظرة المألوفة عند الشعراء في عصره ، حيث تحدث عن المحبوبة والصحراء .

والثانية : ما يتعلق بالأمور الدينية ومقدار تأثره بالمبادئ الدينية الجديدة ،إذ يظهر في بعض الأبيات تأثرا واضحا بهذا الدين ، مع أنه وافد جديد ، وهذا رد على بعض الطاغين حول خلو القصيدة من العاطفة الدينية مع علمه بما يمتاز به الرسول الكريم من نبيل الصفات وكرم

---

[1] :المصدر نفسه. ص 91.

الأخلاق ، حيث وجد لنفسه فيها ملاذا ومفرا ومأمنا ، يتخلص من خلالها للوصول إلى الاستعطاف ثم الصفح من النبي، وبهذا خرج المديح من دائرة التكسب المادية الضيقة، ليكون بذلك مدحا معنويا غايته نصرة الدين الإسلامي وجعل الرسول –صلى الله عليه وسلم–لواءه . والقصيدة لاقت من الشيوع والقبول ما قل نظيره في أدبنا العربي ، وما تحفل به أي قصيدة أخرى فتلقفتها أيدي الشراح والنقاد والباحثين ، حتى غدا الشعراء ينسجون على غرارها قصائد لا تعد ولا تحصى ، كما حامت حولها مجموعة من الطعون والشبهات .

والملاحظة الأخيرة على قصيدة بانت سعاد ، أنها ذات مستويين فنيين ، هي وصفه لسعاد والناقة ومدح المهاجرين والرسول يرتفع مستوى القصيدة إلى درجة قد لا يجد الناقد فيها مطعنا ، فإذا ما انتقل كعب للحديث عن الرسول (ص) ومحاولة الاعتذار رأينا مستوى القصيدة يتدنى فنيا ، وعلى أية حال فكعب بن زهير كان يكتب الأجزاء الأولى من قصيدته من وحي فنه الجاهلي، أما الأجزاء الأخيرة فكان يكتبها من وحي فنه الإسلامي ، وقد أوضحنا أن الشاعر قد أبدع فيها ولم يقصر وأبيات الاعتذار –في نظر البعض– لوحة رائعة في التعبير عن المعاناة سخر لها كعب كل مقدرته الشعرية ، ووضعها بين يدي رسول الله (ص) طلبا للعفو .

- دراسة تحليلية فنية لبردة كعب -

1. التعريف بالصورة الفنية

أ. مفهوم الصورة

ب.مفهوم الفن

ج. مفهوم الصورة الفنية

د.بناء الصورة الفنية عند كعب بن زهير

2. تشكيلات الصورة الفنية

1. تشكيلات بلاغية

أ. تشبيه

ب.كناية

3. المحسنات البديعية

أ. طباق

ب.مقابلة

ج. تصريع

4. الإيقاع الموسيقي

أ. **مفهوم الصورة** :

اختلف النقاد في تعريفهم للصورة ، وتعددت آرائهم فمنهم من يربط مصطلح الصورة وشكلها كما يعرفها "علي البطل"بقوله :

"الصورة تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقع العالم المحسوس في مقدمتها فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصورة الحية "[1]

أي أن الصورة تتشكل من عنصر الخيال بالإضافة إلى الأحاسيس العميقة وقد اعتمد بعض النقاد على العقل ليكون أساسا لتعريف الصورة كما يقول " أحمد مهمان":"إن الصورة الشعرية هي تركيبة عقلية وعاطفية معقدة تعبر عن نفسية الشاعر وتستوعب أحاسيسه ، وتعين على كشف معنى أعمق من المعنى الظاهري للقصيدة عن طريق ميز الإيحاء والرمز فيها ، والصورة هي عضوية في التجربة الشعرية ، ذلك لأن كل صورة داخلها تؤدي وظيفة محددة متآزرة مع غيرها ومسايرة للفكرة العامة "[2]

أي أن الصورة الشعرية بالرغم من أنها معقدة إلا أنها تعبر عن نفسية الشاعر وتفهم وتستوعب أحاسيسه ومن النقاد من اعتمد على الشعور والوجدان في تعريف الصورة .

يقول "عز الدين إسماعيل": "الصورة دائما غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع ، لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في وجودها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع " [3] أي أن الصورة تكون دائما واقعية أما الصورة الفنية تنتمي إلى عالم الوجدان أكثر من الواقع .

---

[1] : علي البطل . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن 2 ه، دار الأندلس. بيروت .1980. ط1 .ص 30.

[2] : أحمد دهمان . الصورة فى البلاغية عند عبد القاهر. دار طلاس. دمشق 1986 .ط1. ص 367.

[3] : عز الدين إسماعيل.الشعر العربي المعاصر.(قضايا وظواهره الفنية والمعنوية). دار الفكر العربي. القاهرة . 1978.ط3 ص127.

بالإضافة إلى هذا يعرف "عبد القادر القط" الصورة بشكل أوسع وأشمل إذ يقول:" هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والجناس وغيرها من وسائل التعبير الفني " [1] أي أن الصورة عبارة عن مجموعة من الألفاظ يقوم بترتيبها الشاعر وذلك بغية الوصول إلى هدف وهو التعبير عن جانب من جوانب تجربته الشعرية .

أما "عبد القادر الرباعي" فيقول : "الصورة لا تعني عندي ذلك التركيب المفرد الذي يمثله تشبيه أو كناية أو استعارة فقط ، ولكنها تعني أيضا ذلك البناء الواسع الذي تتحرك فيه مجموعة من الصور المفردة بعلاقاتها المتعددة حتى تصير متشابك الحلقات والأجزاء بخيوط دقيقة ومضمونة إلى بعض في شكل اصطلحنا على تسميته بالقصيدة " [2] فالصورة عنده ليست تركيب مفرد وإنها بناء واسع تتحرك فيه مجموعة من الصور المفردة .

كما يذهب "محمد غنيمي هلال " مذهبا آخر ، حيث يقوم بنفي مجازية الكلمة أو العبارة لتشكيل الصورة ،إذ أن العبارات الحقيقية قد تكون دقيقة التصوير ذات خيال خصب وإن لم تستعن برسائل المجاز .

يقول :"إن الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية ، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال ، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب " [3] أي أن الصورة قد تكون عباراتها حقيقية وبالتالي تكون دقيقة التصوير .

---

[1] : عبد القادر القط . الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر. دار النهضة العربية. بيروت. 1978. دط. ص 435 .

[2] : عبد القادر الرباعي. الصورة الفنية في النقد الشعري. دار العلوم للطباعة. 1984. ط1. دراسة في النظرية والتطبيق. ص .10

[3] : محمد غنيمي هلال . النقد الأدبي الحديث. مطبعة دار نهضة. مصر. القاهرة. 1997 . دط. ص 432.

والصورة الفنية عند "خليل عودة" هي :" جوهر الشعر وأداته القادرة على الخلق والعطاء بما توصله إلى نفوس الآخرين من خبرة جديدة وفهم عميق للأمور"[1] أي الصورة هي جوهر الشعر لأنها وسيلة فعالة في إيصال المعلومات وفهمها فهم عميق.

ب. مفهوم الفن :

الفن هو ذلك الوصال الوجداني مع الأعمال الفنية ومن خلالها هو التطهير الأخلاقي الذي يسمو في روح الإنسان ويجعله أكثر انسجاما ويدفعه إلى الخروج من أفقه الضيق ، فيتأمل الأعمال الفنية بنظرة فهم ووعي حتى يصل إلى مستوى تقديرها وتذوقها ، وعند هذا المستوى الجمالي يصل إلى كل ما هو إنساني أو كلي ، كما يصل إلى عالم الانسجام الذي لا يجده زمان ولا مكان وهنا يبرز دور الفن كحقيقة في حياتنا .

ولقد اختلفت وجهات نظر علماء الجمال والمحدثين والمعاصرين في تعريف الفن ، وهل هو تنفيذ وإنتاج في الحل الأول أم أنه مجرد إلهام وسحر مفاجئ لا صلة له بعالم الواقع أم أنه يجمع بين عاملي الفن والصناعة في وحدة لا تنفصل ، أم أنه ليس فنا أو صناعة ، وهل يمكن النظر إلى قيمة العمل الفني من خلال ما يحققه للفرد من شعور باللذة أو السعادة ؟

وتذهب بعض الآراء إلى أن الفن هو نتاج ممارسة الإنسان لحريته وإحساسه العميق بذاته ونمو وعيه وأنه بهذه الطريقة –أي عن طريق الفن – يحاول السمو فوق مستوى تاريخه المشحون ، وعامله الواقعي فيخلق لنفسه عالما خاصا من تأليفه ، وإلهامه المبدع وهو في هذه المحاولة لا ينقل أي صور من الواقع أو يحاول تقليده وفضلا عن الآراء السابقة فإننا نجد أن هناك من يقول أن الفن هو إطلاق سراح حرية الإنسان في التعبير عن واقع يرفضه ويتمرد عليه .

---

[1] : عودة خليل. الصورة الفنية في شعر ذي الرمة(رسالة دكتوراه غير منشورة)جامعة القاهرة جمهورية مصر العربية 1987 .ص 6.

وهكذا تتعدد الآراء بصدد العمل الفني فمنها من يذهب إلى أنه عالم الإلهام والحدس ، ومنها من يتمثله في أفكار الإبداع والتنفيذ أو الخبرة الواقعية فضلا عمن يتمثلونه في فكرة الحرية المبدعة أو في شعور التقبل والتمرد [1] .

ج. مفهوم الصورة الفنية :

الصورة الفنية لها مفاهيم عديدة ومتنوعة لدى الشعراء والنقاد حتى عند الكتاب فمن بين هذه المفاهيم ما جاء في كتاب إبراهيم رماني في تعريفه للصورة الفنية إذ يقول :"الصورة هي معطى مركب معقد من عناصر كثيرة من الخيال والفكر الموسيقي واللغة هي مركب يؤلف وحدة غريبة لا تزال ملابسات التشكيل فيها و خصائص اللبنة لم تحدد على نحو واضح إنها الوحدة التي تمزج بين المكان والزمان " [2] فالصورة هي عبارة عن عدة أنواع من الصور الجزئية والبلاغية وأهمية الصورة تكمن في أنها مشهد يستوعب عدة أطراف .

كما جاء قول الدكتور "عز الدين إسماعيل" في كتابة؟[التفسير النفسي في الأدب] فيعرفها بأنها: "الشعور المستقر في الذاكرة....وعندما تخرج هذه المشاعر إلى الضوء ، وتبحث عن جسم فإنها تأخذ مظهر الصورة في الشعر أو الرسم أو النحت" [3] فالصورة عنده عبارة عن شعور مكبوت في الذهن ، وعندما تخرج هذه المكبوتات وتبحث عن جسم فإنها تأخذ مظهر الصورة.

بالإضافة إلى هذا يرى بول ريفيردي Poul Reverdy بأن الصورة "إبداع ذهني صرف.... تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة " أي أن الصورة عبارة عن إبداع موجود في الذهن ، حيث تنبثق هذه الصورة من حقيقة واقعية .

---

[1] : راوية عبد المنعم عباس. الحس الجمالي وتاريخ الفن . دار النهضة العربية. بيروت . 1998.ط1. ص 233.

[2] : هيمة عبد الحميد.الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري. دار هومة.الجزائر. 2003. ط1. نقلا عن إبراهيم رماني. الغموض في الشعر العربي. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. ص 85.

[3] : عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب .دار العودة .بيروت. لبنان .1981 . ط4 ص 71.

إن الصورة الفنية لا تخرج من عناصر الخيال والأحاسيس العميقة التي تساعد الشاعر على بناء قصيدته وهي القوة الخالقة التي يسجل بها الشاعر رؤية أو موقف ينظم به شعره ، كما لا يخلو عنصر الشعور في تكوين أية صورة فنية وهي معادلة لأحاسيس الشاعر المبدع .

والدراسات الحديثة للصورة الفنية تقوم على التحرر من قيود الجمود حيث ابتعدت عن التقصي الخارجي لأنواع الاستعارات فيها، كما ابتعدت من التتبع العقلي لحركة المشابهة وأطرافها [1] .

د.بناء الصورة الفنية عند كعب بن زهير :

إن الصورة الشعرية هي صورة إيحائية ، تتكون من علاقات متداخلة تجمع بين المنطق و اللامنطق ، بين الواقع و الحلم ، بين الخيال و الوهم ،و كل ذلك ينصهر في بوتقة واحدة لتشكيل هذه الإيحائية في الشعر ، ولا يمكن للمتلقي أن يكتشفها من خلال ذلك النسخ المعقد ، إلا إذا كان يمتلك إرادة الخلوي ن أو كان ملما بأدوات صنع الصورة الشعرية لإعادة خلقها [2].

و العمل الشعري يتكون من تداخل عالمي الوعي و اللاوعي ، ومن ثمة فالشاعر يعتمد على الصورة الرمزية التي تكون غامضة أول الأمر ، ثم سرعان ما تستكشف أسرارها عن طريق الإيحاءات المختلفة المتسربة في وجدان المتلقي ، ومن ثمة تصبح تجسيد المشاعر المشحونة بالإنفعالات و عن طريق ما توحي به الإيحاءات من الإشارات المختلفة ، تنمو العلاقات الكامنة في أحشاء ألفاظها و دلالاتها المتنوعة لإعطائها إنسجاما يتعاون في إبراز ثرائها ، و كأن القارئ يعيد خلق القصيدة من جديد بواسطة استنتاجات يضم كل استنتاج إلى ما قبله و إلى ما بعده ، مع مراعاة السياق العام للقصيدة ، لأن الصورة الفنية " ليست تصويرا سطحيا لهذا الموضوع أو ذلك أو إعادة لهذه الأحاسيس أو تلك ، إنها إعادة للواقع و إعادة تشكيله و تقييمه انفعاليا من قبل

---

[1] : ساعي أحمد بسام. الصورة بين البلاغة والنقد . المنارة للنشر والتوزيع .1984 م .ط1 ص 37.

[2] محمد مهداوي : جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم ، مقاربة تحليلية .ص 103 .

الشاعر أو الفنان ، و يقتضي التصوير (في هذا الحال) الارتكاز على الانعكاس الانفعالي العقلاني للواقع على ضوء مثال جمالي محدد ....." [1] .

هذا و لأن الصورة هي الفن الذي يجسد الفكرة و عن طريق الانفعال الصادق يبرز مضمونها (الصورة) من خلال التبادل العضوي الموجود في بناء القصيدة بين شكلها و مضمونها ، بالإضافة إلى هذا فالانفعال له تأثير كبير في شحذ قوة التخيل عند الشاعر كعب ، و إعانته على صياغة صوره الشعرية ، وهذه الصور بدورها هي التي تساهم في الإبانة عن المضمون ، فكلاهما يصب في السياق العام للأثر الشعري و لا يخفى علينا أن الانفعال " يولد في الإنسان حالة من عدم التوازن النفسي و التوتر اللازم ، تلك الحالة تدفعه للتفتيش عن وسيلة أخرى تعيد لنفسه توازنها ، ولتوتره انخفاضه ..... فيلجأ إلى التعويض عنها ، عن طريق الإبداع الفني و التسامي بمشاعره ، تماما مثلما يلجأ للتعويض عنها ، عن طريق أحلام اليقظة أو النوم [2] .

و لما كان الشعر هو محاولة التخلص من الانفعال فهو كغيره من الفنون ، يخضع لمبدأ الانتقاء و الاختيار ، أبيح للشاعر أن تنتقي – ولكن في غير إسراف– حتى لا يباعد بين لغة المعجم أو لغة الحياة ، فإن باعد بينهما جعل الشعر عاجزا عن النفاذ إلى نفوس السامعين ، لأن الكلمات تستمد تأثيرها و قدرتها على الإيحاء من خلال استعمالها في الحياة الأدبية ، و مهارة الشاعر في أن يضعها في عبارات ملائمة لموضوعها .

و القصيدة من الناحية الفنية فهي جيدة بغير شك ، كعب يبدو فيها مصورا من الطراز الأول ، و هو في تتعبه لأجزاء الصورة و اختيار ما يلائمها من ألوان و أصباغ ، يبدو تلميذا نجيبا لأبيه زهير ، الذي كان يتميز بمثل هذه الصفة ، كما يجمعه بأبيه أيضا دقته في اختيار الألفاظ و التأنق البالغ في الصياغة ، و جمال القصيدة في وشي الخيال و براعة الأداء ، وقد استطاع أن

---

[1] المرجع نفسه. ص 104 ، نقلا عن ، د حسين جمعة ، قضايا الإبداع الفني ، دار الآداب ، بيروت ، د ت ، د ط ، ص 75 .
[2] المرجع السابق. ص 104 ، نقلا عن أسس النقد ، مجيد عبد الحميد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية .

يدوم في الأجواء العالية يقوده عقل متزن ، و يسمو به جناح خفاق ، وينقاد له بيان رفيع و لغة مختارة ، فهو في مدح النبي (ص) و المهاجرين يقلد النابغة الذبياني فيمزح بالاعتذار لبلوغ الهدف ، و يجمع من صفات الملوك و الأسياد ما يلقيه على ممدوح في غير نظرة موضوعية إلى حقيقة الرسالة الإسلامية التي قام بها النبي .

فالشاعر كعب بن زهير يصور بالألفاظ كما يصور بالتشبيه و الاستعارة ، ويمد الصورة بالاستطراد ألتشبيهي .

أ) **وسائل التصوير** :

ليس ضروريا أن تكون الصورة الشعرية معتمدة على وسائل التصوير النقليدية ، التي التي عرفتها البلاغة العربية ، وهو " ما كان يسميه النقاد العرب القدماء ، استعارة و كناية ، و استعارة مكنية أو .... و هو في مصطلح النقد الحديث و مفهومه إلا صورة فنية ..... " [1] .

فليس الوسائل البلاغية كالمجاز و التشبيه و الاستعارة و الكناية ، وغيرها هي التي تصنع الصورة إذا لأن الشاعر يملك الكثير من وسائل التصوير ، باعتبار أن تركيب الصورة الشعرية تتداخل فيها عوامل منها : " الأثر النفسي ، الإحساس الوجداني ، طريقة الربط بين مكونات الصورة ، تأثير الوضع الثقافي و الاجتماعي ، وملائمة الموضوع لذاتية الشاعر أو غير مطابقته لهذه الذاتية " [2] .

---

[1] عبد الملك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة ، بيروت ، 1986 ، ط 1 ، ص 71 .
[2] محمد مهداوي ، جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم ، مقاربة تحليلية .ص 105 .

لذلك تكثر النماذج التصويرية في الشعر العربي القديم ، دون أن يعتمد التصور فيه بالضرورة على الوسائل البلاغية ، أو بعبارة أخرى تعد الصورة تشكيلا لغويا يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها ، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب مالا يمكن إغفاله من الصور النفسية و العقلية ، و إن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية..... [1] .

و نحن إذا بحثنا عن تشكيل الصور عند كعب وجدناها لا تخرج عن نمط الشعر العربي القديم، فهي تتكون من معطيات كثيرة متنوعة مصدرها العالم المحسوس إظافة إلى الصور النفسية و العقلية ، ودور الخيال في نسيج علاقاتها ، وربط بعضها ببعض ، دون أن ننسى دور اللغة في بناء الصورة ، فهي الحجر الأساس بما تحمله من شحنات دلالية متوازنة جيلا بعد جيل .

فجاءت القصيدة عبارة عن شريط من الصور ، يصنعه أسلوب الشاعر " كعب بن زهير " ، و هذا بفضل ما يمتلكه من ثروة لغوية ذات معان و مدلولات معروفة متوازية ، مضافا إليها انفعال الشاعر و معاناته ، دون الابتعاد عن لغة الحياة حتى يفهمها السامعون ، و هو من حين إلى آخر يعتمد على بعض الوسائل البلاغية ، لتجسيد بعض الصور ، وهذا يأتي عن عضوية من الشاعر ، دون أن يصل إلى ذلك قصدا ، ذلك لأن التشبيه و ما يتصل به من كناية و استعارة و غيرها ، يعد من الكلام العادي حينئذ يدخل في الشعر، كما يدخل في الحديث اليومي بين العامة، لأن في ذلك الوقت لغة الشعر و لغة القبيلة .

واحدة يفهما الجميع ، والفرق بين الشاعر و الناس ، يكمن فيما يتميز به الشاعر من رهافة الحس ، و شدة التأثير ، وسرعة البديهة ، و امتلاك ناصية اللغة و القدرة على التصرف فيها ، شأنه في ذلك شأن الشاعر الشعبي في عصرنا ، فهو كما يستخدم التشبيه يستخدم الكناية .

---

[1] على البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن 2 هـ ، ص 30 .

و جميع هذه الصور تأتي نتيجة لمقدرة الشاعر على التصرف في اللغة و لعل الصور اللغوية التي صنعها " كعب " بألفاظ لغوية ممزوجة بانفعاله و رهبته ، و هذه الصور جاءت قوية و معبرة بصدق عن المعاناة و المثال على ذلك ، حديثه عن الحالة النفسية التي كان الشاعر يعاني منها ، قبل لقائه برسول الله (ص) ، حيث أتى بعض الصور مرعبة ، عن أسد ضار رابض بالوادي يليهم كل من يقترب من هذا الوادي ، وهي صور من صنع انفعاله و خياله و مهارته الفنية ، فمهما كان التطور الحضاري و مهما كانت انعكاسات البيئة الاقتصادية و الاجتماعية و الروحية على الإنسان ، فإن الفرد و الجماعة يعيشان الحياة اللغوية كرباط اجتماعي لا فكاك عنه ، مما يدل أن اللغة قادرة على صنع المستحيل ، خاصة إذا كان الشاعر يمتلك منها زادا كبيرا ككعب بن زهير ، فتصبح لديه طبقة يشكلها كما يشاء ، وما الشعر إلا عملية تواصل بين طرفين هما المرسل و المرسل إليه [1] .

فالشعر هو الرسالة التي يستقبلها المرسل إليه (المتلقى) من المرسل (الشاعر) ، وهذا الشعر يقتضي وجود نظام رموز أو لغة مشتركة بين المرسل و المتلقي .

<u>المعجم اللغوي الذي استقى منه كعب قصيدته</u> :

جاء في تعريف اللغة، قول بن جني: " حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "

من هذا التعريف نرى أن اللغة تتألف من الألفاظ و المعاني و الأغراض و نعني بالأغراض حاجيات الناس و مشاكلهم ، و نحن نعلم أن الشاعر العربي القديم ، هو نتاج عاملين اثنين متضافرين هما : القبيلة التي رعته و احتضنته ليعبر عن مآثرها و مفاخرها ، والمجتمع و لغته ، و كلاهما يضع الآخر ، فاللغة تصنع المجتمع عن طريق تنشئة الأجيال ، بما تحمله هذه اللغة

[1] ينظر محمد مهداوي ، جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم ، ص 109 – 110 .

من قيم مادية و روحية و مدلولات ، كما أن المجتمع يصنع اللغة لأنها ظاهرة اجتماعية ، لا توجد حيث يوجد المجتمع ، وهو الذي يعمل على تنميتها و تطويرها سلبا و إيجابا .

و بما أن الخطاب الأدبي ينبني على ألفاظ حاملة للمعاني و المشاعر ، فإن لكل شاعر أو كاتب منهجا خاصا يتجلى فيه أثر شخصيته و بيئته في تغير معجمه اللفظي ، للتعبير عن المعاني و الأحاسيس و المشاعر المشحونة بالانفعالات ، و مثل هذا سلكه كعب في اختياره المعجم اللغوي (اللفظي) حتى يستطيع التعبير عن المعاني في النص .

و كعب حين نظم قصيدة (بانت سعاد) استخدم اللغة المشتركة بينه و بين مجتمعه ، غير أن انفعالات الشاعر تتدخل من حيث لا يدرى الشاعر ، فتحدث نوعا من زحزحة هذه اللغة عن مرجعيتها الأصلية ، وهي المرجعية المشتركة بين أفراد الجماعة ، بفضل ما نسميه باللذة الأدبية [1] و هذا ما حدث فعلا ، حين أنشد كعب رسول الله (ص) قصيدته ، فنالت إعجابه و رضاه ، لما حملته من لذة أدبية ، وليس كل قصيدة قصيدة ، فالقصيدة هي التي جعلها قائلها في باله ، فقصد لها قصدا ، فالمعنى و المبنى متلازمان إذ أن المعنى بمثابة الروح و المبنى بمثابة الجسد .

لقد ضاق الشاعر كعب ذرعا بهمومه و عذابه الذي أرقه شهورا و أياما و ربما سنينا ن فلم يجد وسيلة تزيح عنه ذلك سوى إفراغ هذه المعانات في قصيدة شعرية ، والذهاب بها إلى الرسول ، ومواجهة مصيره بنفسه ، فجاءت هذه القصيدة بلغة القبيلة تجمع في ألفاظها بين الرقة و الجزالة ، بين المبتذل و المهجور في آن واحد ، مما غلب على شعره صراحة القول ، و البعد عن التكلف ، واستعمال الألفاظ في معانيها الوضعية ، أو في معان مناسبة للمعنى الأصلي بطريق المجاز القريب من الحقيقة ، لأن أكثر المدلولات في الشعر القديم حسية ، فالألفاظ توضع في مكانها ، والعبارات تؤدى معانيها ، لذلك لا يمكننا أن نقسم لغة الشعر عند " كعب بن زهير " إلى لغة جزلة و غير جزلة و إلى ألفاظ مهجورة و أخرى مبتذلة ، لأن لغة الشعر في هذه المرحلة ، كانت

---

[1] المرجع نفسه، ص 115 .

هي لغة الحياة العامة ، حيث كان الشعراء يضعون أسس الشعر بوحي من تجاربهم الذاتية المحضة ، و لم يكن لديهم نماذج ينسجون على منوالها ، أو قواعد يدرسونها ، ثم يمارسون تطبيقها ، فلا توجد لغة للشعر و أخرى لغير الشعر [1] .

و كما يبدو من خلال قصيدة " كعب بن زهير " فإن لغة ذلك الزمان أكثر وصفا للبيئة و ما يتصل بها من وصف الأرض و البحر و النبات و الطير و الماء والحيوانات الأليفة و غير الأليفة ، فالشعر تعبير عن الحياة بخيرها و شرها ، بجمالها و قبحها ، وتوير للنفس البشرية بفضائلها و رذائلها ، فلابد أن ينعكس كل ذلك على ألفاظه التي ليست إلا أدوات يبرز بها " كعب " عواطفه و خواطره .

و كعب في في هذه القصيدة يبقى على اللغة في أصولها و يحافظ عليها في أطرافها ، ومن حين لآخر يأتى ببعض الألفاظ أو بالأحرى ببعض التراكيب الموحية ذات الظلال الشعرية مثل قوله :

شد النهار ذراعا عيطل نصف.....
أبطال لبوسهم من نسج داود .....
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم [2] .

و معظم ألفاظ القصيدة ، يرجع إلى اللغ ة التي كانت سائدة في العهد الجاهلي ، و أصبحت رصيدا ضخما بفضل التراكم على مر العصور ، فهو التراث الذي لا غنى عنه .

و من هذه الألفاظ الكثيرة نذكر : لا أبا لكم – أوعدني – الوشاة – لظل يرعد – عثر غيل – خراديل – البز – الدرسان – شم العرانين – السود التنابيل

---

(1) المرجع السابق .ص116 – 117 .
(2) المرجع السابق.ص119 .

أما الألفاظ الإسلامية ، فقليلة جدا بالقياس إلى الألفاظ الأخرى و هي : ما قدر الرحمن مفعول – أن رسول الله – العفو عند رسول الله – هداك – ناقلة القرآن – مواعظ – أن الرسول لنور – من سيوف الله

نقرأ قصيدة " كعب بن زهير " ، فنشعر أنها نسيج متكامل على الرغم من تنوع الموضوعات فيها ، و استغلال كل بيت بداخلها ، فهي ذات نفس متقارب في الرؤى و الصياغة ، تعتمد على الوصف الخارجي للتعبير عن الوصف الداخلي ، و تمنح من التراكم الثقافي المتواتر لغة و تقليدا في الإيقاع و الصياغة و تتوزع القصيدة على المستويات الأربعة الآتية :

1) **المستوى الثقافي أو التراثي** : و يتمثل في المقدمة الطللية بما تحمله من تدرجات في الوصف ما بين المحبوبة النائية ، و المطية المتخيلة التي يمكنها أن تبلغ ذلك المكان النائي ن ومتاعب السفر و مشاهد الطبيعة .
2) **المستوى الاجتماعي:** و يتمثل في وصف هذا المجتمع الوالغ في الفساد ، وما فيه من شرائح اجتماعية متنوعة ، و أنه حتى ظل الإسلام و في عهد الرسول (ص) ، لم يدخل هذا المجتمع من وجود طبقة الوشاة و المنافقين و غيرهم ممن يتلذذون بأوجاع الآخرين.
3) **المستوى النفسي للشاعر** : و يتجلى في قدرته على التعبير عن معاناته ، وبيان ما فعله به الوشاة من خلال لغة الشعر ، وتدخلات الخيال .
4) **المستوى الغائي** : و يبرز في دفاع الشاعر عن نفسه أمام مجلس رسول الله (ص) و الإعتذار إليه ، و مدحه و مدح المهاجرين من قريش ، من أجل الظفر برضى الرسول (ص) و عفوه .

و مما يضيف " محمد مهداوي " و هو أستاذ محاضر في جامعة تلمسان و هو كاتب أيضا ، يقول : " غير أننا نلاحظ على هذه القصيدة ، أن أبيات المدح و الإعتذار إلى الرسول (ص) ، أقل من الأبيات التي تحدث فيها الشاعر عن الغزل ووصف الراحلة ، ووصف معاناته و هذا في حد ذاته يعد عيبا فنيا من عيوب الشعر في القصيدة ، و على الرغم من ذلك كله نالت

هذه القصيدة استحسان القدامى و إعجابهم ، فاعتبروها من أعظم ما قيل في مدح الرسول (ص) في ذلك الوقت [1] .

لقد حافظ كعب بن زهير في القصيدة على القيم الفنية السائدة في ذلك العصر ، وعلى الرصيد اللغوي و الثقافي المشترك ، الذي أصبح بفضل التراكم على مر العصور تراثا ضخما ، ونعنى به التراث العربي بإيجابياته و سلبياته .

1. تشكيلات الصورة الفنية :

1) تشكيلات بلاغية :

أ. التشبيه :

التشبيه فن من الفنون البلاغية يدل على سعة الخيال وجمال التصوير، ويزيد المعنى قوة ووضوحا يقول قدامة بن جعفر في تعريفه "إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمها ، ويوصفان بها وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ، وإن كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدني بها إلى حال الإتحاد" [2] كما يعرفه ابن رشيق أي أن التشبيه هو اشتراك شيئين في معاني تعمهما فيوصفان بها .

"صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه" [3] فالتشبيه عنده بمثابة صفة الشيء وما قاربه وشاكله من جهة أو أكثر ، كما يعرفه الجرجاني بقوله: "أعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين : أحدهما أن يكون من جهة أمرين لا يحتاج إلى تأويل ، والآخر أن يكون الشبه

---

[1] المرجع السابق.ص 122 .

[2] : أبي الفرج قدامة بن جعفر. ت ح. د محمد عبد المنعم خفاجي . دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان. 1948. ط1 ص 124.

[3] :القيرواني ابن رشيق.العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ت ح .محمد عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى مصر.1963. ط3 ص 286 .

محصلا بضرب من التأويل "[1] أي أن التشبيه العام هو ما كان وجه الشبه فيه مفردا أي صفة اشتركت بين شيئين.

أما الدراسات البلاغية الحديثة ، فقد رفضت نظرة البلاغيين القدماء لها ، باعتبارها وسيلة يتم الكشف من خلالها عن التجربة الشعرية، فالتشبيه الأصيل قد يهدف إلى الإبانة ، بشرط أن يفهم الإبانة على أنها نوع من أنواع الكشف والتعرف إلى الجوانب الغامضة من التجربة التي يعانيها الشاعر[2] وقد يبرز التشبيه في شعر كعب بن زهير في أغلب معانيه وأغراضه الشعرية في صورة الممدوح ولعل أهم أنواع التشبيه عنده جاء باستخدام أدوات التشبيه ومن أمثلة ذلك التشبيه في قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

حيث شبه الشاعر الرسول (ص) بالسيف المتين الصنع يحيط به المسلمون في مكة ، ولما أمرهم بالهجرة هاجروا لا ضعفاء، ولا مهزومين ، بل إنهم أبطال.

والتشبيه في قوله :

بيض سوابغ قد شكت لها حلـق كأنها حلق القفعاء مجدول

يمشون مشي الجمال الزهر بعضهم ضرب إذا عرد السرد التنابيل

حيث وصف الشاعر في هذه الأبيات المهاجرين أو المسلمين عموما بامتداد القامة ، والضخامة وبياض البشرة والرفق في المشي وذلك دليل على أنهم سادة ، وبين أن المسلمين شجعان وأنهم في قمة التضحية لأنهم يملكون كل وسائل الحرب، فيتقبلون الحرب بثقة وهيبة .

وقوله :

لا يقع الطعـن إلا في نحـورهم وما لهم عن حياض الموت تهاليل

---

[1] : عبد القادر الجرجاني . أسرار البلاغة .ت ح ه ريتر. مطبعة وزارة الأوقاف. 1951. ط2 ص 80-81.

[2] [5] :جابرعصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب .دار التنوير للطباعة والنشر. بيروت لبنان. 1983 م. ط3 ص 415.

شبه الموت بالحياض وجا التشبيه البليغ في صورة المضاف والمضاف إليه وكذلك فيها استعارة تصريحية لأنه شبه ساحة المعارك بحياض الموت وصرح المشبه به .

ج. الكناية :

الكناية عند عبد القاهر الجرجاني هي"أن يريد المتكلم إثبات معنى من الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم هو طويل النجاد يريدون طويل القامة"[1]

فالكناية عنده هي إثبات معنى من المعاني وعدم ذكره باللفظ الموضوع ولكن المجيء بمعنى هو ردفه والكناية من العناصر التي يلجأ إليها الشاعر في تشكيل صوره ، ولها من الأهمية درجة كبيرة إلى جانب التشبيه والاستعارة ، لأنها تسهم في تشكيل الصورة بذاتها دون الامتزاج مع عناصر أخرى حتى عدت من أوضح معالم الصورة في الشعر [2]

وتكمن بلاغة الكناية في "أنها تأتي في الموضع الذي لا يحس التصريح فيه واعتمادها على الإيجاز في التغيير" [3] أي أن الكناية تعتمد على الإيجاز في التعبير، وقد أعجب القدماء بها كونها تعتمد على الإيحاء ، واعتبرها الجرجاني أبلغ في الإفصاح عن المعنى ،وأن التعريض بها أبلغ من التصريح ، ذلك لأنها تريد إثبات المعنى وتجعله أكثر بلاغة وأشد توكيد [4].

والكناية تساعد في تصوير المعنى أحسن تصوير ، وتعمل على رسم الصورة الموحية في أسلوب بليغ موجز تتألف ألفاظه مع معانيه ، وهي من دلائل بلاغة الشاعر إذا أحسن توظيفها في الموقع الذي لا يحسن فيه التصريح رغبة منه في التجميل والتحسين والبعد عن المبتذل من اللفظ معتمدا على ذكاء المخاطب ، وقدرته على اقتناص المعنى المطلوب .[5]

---

(1) : عبد القاهر الجرجاني" دلائل الإعجاز".تح.محمود محمد شاكر.مكتبة الخانجي.2004.ط5.ص105.
(2) : أنظر : أبو زيد إبراهيم .الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي. دار المعارف القاهرة .1983. ط2 ص 315.
(3) : عودة خليل.الصورة الفنية في شعر ذي الرمة .ص 115.
(4) : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص 56 – 57
(5) : أنظر: زايد عبد الرزاق أبو زيد. في علم البيان .مكتبة الأنجلو. المصرية . مصر. 1978. د ط .ص 141- 142.

فليس ضروريا أن تكون الصورة الشعرية معتمدة على وسائل التصوير التقليدية التي عرفتها البلاغة العربية ، وهو ما كان يسميه النقاد العرب القدماء : استعارة وكناية ، استعارة مكنية... وهو في مصطلح النقد الحديث ومفهومه إلا صورة فنية .[1]

وقد برزت الكناية في شعر كعب بن زهير في مدحه للرسول (ص) حيث اعتبرها من العناصر التي لجأ إليها في تشكيل صوره ، ومن أهم الكنايات ما يلي :

قوله :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول

وهي كناية عن خوف كل الناس من التعرض لغضب الرسول (ص) .

وقوله :

فقلت خلو سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمان مفعول

وهي كناية عن قصده أن يتوجه مباشرة إلى النبي واثقا في كرمه وعطفه .

وقوله:

كل ابن أنثى وإن طالته سلامته يوما على آلة حدباء محمول

وفي هذا البيت كناية عن النعش إذ يعبر عن قلة قيمة حياة لا تدوم وتنتهي بالحمل على آلة حدباء لا مستقيمة .

وقوله كذلك :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وهي كناية عن الرفعة وسمو المكانة والمقام مع الشجاعة وكذا استلهام الثقافة الدينية .

وقوله :

---

[1] : عبد المالك مرتاض .بنية الخطاب الشعري. دار الحداثة .بيروت. 1986 م. ط1 .ص 71.

لا يقع الطعن إلا في نحورهم ما إن لهم عن حياض الموت سبيل

وهي كناية عن شجاعة صحابة الرسول (ص) في مواجهة الموت أثناء المعارك بحيث يتلقون الطعن في نحورهم ، مما يعني أنهم في حالة مواجهة ، ولو كانوا جبناء لفروا ، ثم يكون الطعن في ظهورهم ، وهي كناية بليغة لمحت إلى صفة الشجاعة بطريقة طريفة والتلميح في التعبير الأدبي خير من التصريح .

وقوله : **حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي نقما تقيله القيل**

وفي هذا البيت كناية عن تمام التسليم .

وقوله : **شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل**

ففي شم العرانين كناية عن العزة والإباء والترفع عن الدنايا أما في قوله نسج داود فهي كناية عن السلاح المضرع .

وقوله :

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السوء التنابيل

وهي كناية عن الجرأة والسبالة وعدم معرفة الهزيمة .

2. المحسنات البديعية:

أ. الطباق :

" هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى وقد يكونان اسمين أو فعلين أو حرفين" [1] فيكون تقابل المعنيين مما يزيد الكلام حسنا وطرافة .

ومن نماذج كعب بن زهير ما يلي :

الطباق في البيت الثالث بين (مقبلة ومدبرة)

الطباق كذلك في البيت الثالث بين (قصر وطول)

ب.المقابلة :

" وهي تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما ، ثم إذا اشترطت هنا شرطا شرطت هناك ضده "[2] وهي عند القزوبين:" أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب والمراد بالتوافق ضد التقابل " [3] والمقابلة في قصيدة كعب قليلة منها ما تضمنه البيت التالي :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما ليسوا مجازيعا إذا نيلوا

وهي محسن بديعي معنوي عبر عن صفة كرم النفس عند صحبة الرسول (ص) بالإضافة إلى محسن بديعي أخر يسمى التصريع الذي يتمثل في اتفاق نهاية النصف الأول من البيت إلى نهاية النصف الثاني في قوله : متبول ومكبول .

---

[1] : أحمد الهاشمي. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. تح.د يوسف الصميلي. المكتبة العصرية.صيدا .بيروت 1999.ط.1ص .291.

[2] : أبو يعقوب السكاكي. يوسف مفتاح العلوم .تح.عبد الحميد هنداوي.دار الكتب العلمية بيروت. 2007.ط1. ص 533.

[3] : القزويني أبو عبد الله بن زكريا. الايضاح في علوم البلاغة. ت ح . محمد عبد المنعم خفابي. دار الكاتب اللبناني. بيروت 1971. ط.3 ص .485.

4.الإيقاع الموسيقي :

وموسيقى الشعر قسمان : موسيقى خارجية ، وموسيقى داخلية ، فالموسيقى الخارجية : موسيقى مسموعة تقوم على التأثير على حاسة السمع الذي ينعكس أثره على الوجدان ، والفكر فهي تبنى على الوزن ، والقافية

أما الموسيقى الداخلية (الخفية) تحكمها قيم صوتية باطنية أرحب من العروض تتمثل في اختيار الألفاظ المعبّرة الموحية اختيارا دقيقا وتسلسل الأفكار ، وترابطها ، ووضوح المعاني ، فالموسيقى الخفية تأثيرها يبدأ من الفكر ، والوجدان ، ثم ينعكس على الحواس ، ومن ثم يمكننا القول: إنّ الموسيقى الخفية تعتمد على التأثيرات الذهنية والتخيلية

ولا نعد أنفسنا مجانبين للصواب إذا قلنا : إنّ موسيقى الشعر لا تتحقق من الإيقاع العام الذي يتولد من الوزن ، والقافية فحسب ذلك أنّ وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى أخرى خفية على قدر كبير من الأهمية

يقول لامبورن : " هناك في الشعر موسيقى أعمق ، وأجمل مما

ينجزه الوزن ، والقافية ، وهذه الموسيقى تكمن في اختيار الشاعر

للكلمات ذات النغم ، وترتيبها متآلفة "[1]

فالموسيقى الداخلية هي التي تضفي على الشعر ذلك الطابع الخاص ، وتحقق ذاتية الفنان المتفردة [2]

والإيقاع الموسيقي في هذه القصيدة تجلى واضحا في الوزن ، والقافية فقد اختار بحر البسيط الممتد ليلاءم الاعتذار ،والمدح ، واختار قافية اللام المطلقة القوية لتساعد على التأثير النفسي ،

---

[1] د/ محمد زكي العشماوي. دلائل القدرة الشعرية عند شوقي. مجلة فصول. مجلد 3.ط 1 .1982 ص 3.

[2] لعلي الجندي . صور البديع. دار الفكر العربي 1951.دط . ص79

وفي النص موسيقى خفية نابعة من حسن اختيار الألفاظ ، وتنسيقها ، وترابط المعاني ، وجمال التصوير.

موسيقى الشعر تنبعث من نظام وزنه وقافيته ، ومن اختيار ألفاظ ذات وقع خاص يتألف بعضها مع بعض في صورة صوتية معينة ،والإيقاع الموسيقي للوزن منشؤه تكرار وحدة صوتية معينة ، قوامها توالي الحروف المتحركة والساكنة في نظام مخصوص تسمى هذه الوحدة الصوتية تفعيليه.

ولعل كثرة الأوزان في اللغة العربية ميزة لا توجد في لغة أخرى ، ولها فائدة حليلة ذلك لأن لكل وزن صفة تميزه من سواه ،فالبحر البسيط الذي اختاره كعب لقصيدته "بانت سعاد" يمثل الفخامة ويصلح لإنشاد في المحافل ، وقد وقف الشاعر في ذلك لأنه يتضمن النغمة الصوتية المناسبة لموضوعه ولون عاطفته والشاعر الملهم يهديه دوقه وإلهامه الفني إلى اختيار الوزن المناسب بدون تكلف أو عناء في التغير ، وهذا ما أدى إلى الانسجام والتناغم في قصيدة "بانت سعاد" بين الأفكار والموضوع والإيقاع ،فأكسبها ذلك صفة التخلد والتفوق في عالم الشعر العربي، إذ موسيقى الوزن تحيل الشعر أكثر قدرة على تصوير العواطف وإثارة الإنفعالات في النفوس نتأثر بها ونستجيب لها ، لأن الغريزة الموسيقية أصيلة في نفوسنا ، فيكاد يكون الكون لله بما فيه الإنسان مفطورة على أن يدور في حركة إيقاعية منتظمة .

اختار الشاعر البحر البسيط لأنه يتناسب مع معاني الاعتذار والتعبير عن الخوف والحزن وجميعها نحتاج إلى طول نفسه واسترخاء في التعبير ، ومما يدل على ذلك وجود كثرة حروف اللين التي شاعت بين ألفاظ القصيدة ، فلا يكاد يخلو بيت في القصيدة من هذه الحروف :

أ،ب ، ج، د ، ذ ، ر ، ز، ل ، ن ، ف ، ص ، ط ، ع ، غ، ق ، م ، و ، ي .

وهذا يؤكد مدى الحزن العميق المسيطر على مشاعر الشاعر ومن ألفاظ القصيدة :

بانت ، فقلبي ، اليوم ، متيم ، البين ، نجلو ، منهل ، يعاليل ، وعدنا ، عرقوب ، الأباطيل ، المقتول ، مسلول ، مجدول ، التنابيل ، الطعن ، لضل ، يرعد ، غيل ، مغلول ، مأكول، الفيل ، يغدو ، معفور ، مغلول .

وإذا أضفنا إلى ذلك إمتداد القافية حيث يتضح طول النفس فيها ، فإننا نجدها قد اشتملت وحدها على حرفي لين لتوضح مدى الأسى والحزن المسيطران على لب الشاعر مثل : مسلول ، زولوا مجدول ، نيلوا ، سرابيل ، تهليل ، الفيل ، تنويل ، القيل ، التنابل ، محمول ، مشغول ، مملول ، زهاليل ، ذلك كله من أجل أن تخلق هذه القافية جوا من التقسيم الموسيقي الذي يهز المشاعر ، ويحرك الوجدان ، ويفتح مغالق النفس لتستقبل معاني القصيدة فتستهوي المتلقي وتجعله يشارك الشاعر حزنه ويدعوا له بالسلامة والنجاة وأما حرف القافية بالذات (حرف اللام) فهو من أوسع الحروف مخرجا ، إذا يخرج من خافي اللسان وما يحاديهما من لثة الضاحكين والنابين والرباعيتين[1] .

إن الشاعر القدير بفضل دوقه السليم وحسه المرهف، ومعرفته الواسعة بأسرار اللغة وفنونها يستطيع أن يختار لتعبير من الكلمات ما يكون منسجم الحروف حسن الجرس مناسبا لموقعه من الجملة في الرنين وفي العنال المعنوية [2]، وقد اختار الشاعر من بين البحور الشعرية (البسيط) لانبساط أسبابه ، وانبساط الحركات في عروضه وضربه ، والبسيط و الطويل من أطول البحور حروفا وأدولها نفسا ،ولو وجد الشاعر بحرا أعمق منه لاختاره لأن مأساته لا قرار لها فلا يحتويها إلا البحر البسيط أو الطويل ، لا سيما و أن الشاعر يعبر عن ذاته لا عن ذوات الآخرين فلو كان يعبر عن تجربة اجتماعية أو عن حادثة ما لهان الأمر عليه ، أما أجزاء هذا البحر فهي على النحو الآتي :

---

[1] : محمد مهداوي. جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم. ص 111 نقلا عن د/ صبحي الصالح. دراسات في فقه اللغة دار الملايين. بيروت.1980.ط8. ص 279 .

[2] : المرجع نفسه. ص111.نقلا عن عبد الحميد. حسن الألفاظ اللغوية. معهد البحوث والدراسات العربية 1971. دط .ص7.

مستفعل فاعلن مستفعل فاعلن مستفعل فاعلن مستفعل فاعلن

وقد لا نزيغ عن سمتا الحقيقة إذا زعمنا أن البحور الشعرية في حقيقتها لا تختلف عن النوتة الموسيقية ، إذ كل بحر من البحور يعطي نغما مختلفا ، يتماشى وما يصاحبه من ألفاظ ومعاني وأسلوب وانفعال فكل لغة على وجه الأرض لا تستطيع الوقوف أمام لغة الموسيقى في التعبير عن العواطف لا سيما إذا نطقتا بالشعر ، فيوم خلقت الموسيقى خلق الشعر فهما صنوان متشابهان كلاهما يملأ صنوه حياة ونورا ويزيده حسنا وجمالا وكلاهما يهب للآخر الروح والقوة ويزيد معنى وخياله خيالا ...[1]

ويبدو أن الشّاعر قد حَرَصَ على اختيار البحر البسيط، للدّلالة على أزمته النفسيّة، وإذا جاز الاعتقادُ بوجودِ عَلاقةٍ ما بين الموسيقى الشعريّةِ، الممثّلةِ بالبحر العروضيّ، والقافيةِ، والتناغمِ، والانسجامِ الصوتيّ الحاصلِ من التّناسقِ المعنويّ بين ألفاظِ اللاميّة والمضمونِ الشّعريّ، فإنّ البحرَ البسيطَ بتفعيلاته الثماني الرقيقةِ في هذه اللاميّة مثالٌ على عراقةِ هذا البحر وأصالتِهِ. فاختيارُ كَعْبٍ هذا البَحْرَ " بدا مناسباً بإيقاعه الهادئ الرّصينِ لشفافيةِ الأَسى المنسابِ في قصيدة اعتذاره إلى الرّسول .

إنّ كعباً باختياره البحرَ البسيطَ يسعى إلى أنْ يَظهرَ أمامَ الرّسولِ وصحبِهِ بمظهر الإنسان الهادئ التائبِ السّائلِ الغفران، ليقدّم صورةً مناقضةً لتلك الصّورةِ، التي عُرفتْ عنه بتهوّره وعُنفه وعصبيته وكرهه للإسلام والمسلمين.

ولم يقتصرْ حرْصُ كَعْبٍ على اختيار الموسيقى الخارجيةِ الممثّلةِ في البحرِ البسيطِ فقط، بَلْ سَعى إلى اختيار الإيقاعِ الداخليّ، والموسيقى الداخليّةِ لإظهارِ مُناخِهِ النّفسيّ، ويبدأ هذا الإيقاعُ الحزينُ مع بدايات اللاميّة، ويظهر العويلُ الباكي الحزينُ مُمْتَزجاً بين القافية اللاّميّة المنسابة وإيقاع

[1] : مرجع سابق/ ص 111. نقلا عن عبد الكريم العلاف. الطرب عند العرب. منشورات المكتبة الأهلية .بغداد . 1963. ط2 .ص 90.

الضمّة والواو التي قبلها، ممّا يُكْسِبُ اللاّمَ امتداداً أكبرَ، وأسى أشدَّ، وبكاءً أعظمَ " فلا عجب أن يتعاور الشعراءُ هذا النمطَ من الوزن والقافية في قصائدهم ذات الطابع النّسيبي الحزين

القافية :

يعرف علماء العروض القافية بأنها : هي المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت .

فأول بيت في قصيدة الشعر الملتزم يتحكم في بقية القصيدة من حيث الوزن العروضي ومن حيث نوع القافية .[1]

حرف القافية :

تتكون القافية من حرف أساسي ترتكز عليه يعرف باسم الروي، فالروي هو آخر حرف صحيح في البيت وعليه تبنى القصيدة وإليه تنسب فيقال :

قصيدة ميمية أو نونية أو عينية ، إذا كان الروي فيها ميما أو نونا أو عينا .[2]

حرف الروي :

عرفنا أن الروي هو الحرف الصحيح آخر البيت وهو إما ساكن أو متحرك فالروي الساكن يصلح أن يمثله أغالب الحروف الهجائية وهناك قلة من الحروف لا تصلح أن تكون رويا .[3]

إِنَ الرَسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ به مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُوْلُ

إِنْنَ رْرَسُولُ لَسَيْفُنْ يُسْتَضَاءُ بِهِي مُهَنْذَذُنْ مِنْ سُيُوفِ لْلاَهِ مَسْلُوْلُوْ

---

(1) : د/ عبد العزيز عتيق. علم العروض والقافية. دار النهضة العربية. بيروت. لبنان. د ت. د ط. ص 134.
(2) :المرجع نفسه.ص 136.
(3) : مرجع سابق د/ عبد العزيز عتيق علم العروض والقافية ص 137

0/0/0/0//0/0/0//0/0//0// 0///0//0/0/0///0//0/0/

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

القافية في البيت :مَسْلُولُ

نوعها : مطلقة لأن حرف الروي متحرك بالضمة

الروي : اللام

وهكذا يتأتى للشاعر في تصويره وتعبيره في غير عنت و لا ضعف ، فهو يستطرد و لكنه لا يطيل الاستطراد كالنابغة ويشبه ، ولكنه لا يكثف التشبيهات كطرفة و امرئ القيس ويدقق في التصوير و لكنه لا يتوقف عند الجزئيات كأبيه زهير وينطق موسيقى الألفاظ ، لكنه لا يغالي في ذلك كالأعشى وهو في ذلك كله شاعر الاتزان و التأني وشاعر الروعة الأدائية النادرة.

لقد افرغ كعب كل طاقته الفنية في هذه القصيدة "بانت سعاد" ، ليمثل لنا أهم رحلة قام بها في حياته و أعظم نقلة إنتقلها، لقد حشدت الأحداث شحنات هائلة في فكره و تأمله،شحنات هائلة في عاطفته ووجدانه ، و تحركت موهبته بقوة عظيمة لتطلق الومضة الفنية الرائعة بين الشحنتين ، شحنة الفكر و شحنة العاطفة .

وقد جمعت موهبة الفذة في هذه الومضة عناصر الجمال الفني كلها ، من عظمة الموضوع و روعة الأسلوب وقوة الصياغة ومتانة السبك وهي عناصر ينبع منها الإيمان و التوحيد المغروس في فطرته، و حين أفاق و استيقظ و عرف الحق فأصبح الإيمان يروى ريا دافقا لتلك العناصر الفنية، حتى تزهر و تنبع فواحة في تلك الرائعة الفنية.

وربما يشعر قارىء اليوم أن بعض الكلمات غريبة عليه ، لأنها بعيدة عن معجم عصرنا اليوم ، ولكنها مع ذلك ظلت تحتفظ حتى اليوم بجمال موسيقاها و عذوبة انسيابها وجمال ترابطها ، حيث

يحس القارئ المؤمن الذي يعرف لغة القر آن يكون إحساسه بها حتى ولو لم يدرك معناها لكن صورها المتلاحقة بألوانها الزاهية و المختلفة تجعلها عظيمة القيمة و تجعل من حركتها حية دون إغفال لحلاوة الجرس و النغم الشادي.

من هذا التصور تأخذ قصيدة" بانت سعاد" روعتها و إبداعها وتحمل البركة من بردة الرسول–صلى الله عليه وسلم– لتتحلى بحلية تمضي بها إلى أبد الدهر.

خاتمة :

من خلال بحثنا هذا توصلنا إلى النتائج التالية :

1-قاموس القصيدة الجاهلية وبعض مضامينها (الغزل ووصف الناقة) كانت ملامحها حاضرة في قصيدة كعب بن زهير البردة.

2-خروج المديح من دائرة التكسب المادية الضيقة إلى أفق فقد التكسب المادي فيه كل ملامحه ليكون المدح بذلك مدحا معنويا خالصا غايته نصرة الدين الإسلامي وجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم-لواءه.

3-شاكل كعب بن زهير خطى سابقية من خلال المزج بين غرضين هما المدح و الإعتذار (النابغة الذبياني).

4-قصيدة البردة لكعب بن زهير جمعت بين جمال الشكل و روعة الأسلوب.

قائمة المصادر
و المراجع

القران الكريم.رواية ورش عن نافع المدني.منار للنشر و التوزيع.2005.ط1.

المصادر:

1. ابن منظور" لسان العرب" .ضبط و نصه و علق حواشيه د. خالد رشيد القاضي . دار صبح و إديسوفت . بيروت – لبنان. 2006 .ط1.ج13

2. حنا الفاخوري . الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم . دار الجيل . بيروت–لبنان . 1986. ط1

3. كعب بن زهير " الديوان " قرأه . محمد يوسف نجم . دار صادر . بيروت .2002. ط1.ط2.

المراجع:

1– أحمد حسن الزيات . تاريخ الأدب العربي . دار المعرفة . بيروت . 2000 . ط6

2. أحمد الهاشمي جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ت ج د يوسف الصميلي المكتبة العصرية صيدا بيروت1999 ط 1

3. أحمد دهمان ، الصورة فى البلاغية عند عبد القهار. دار طلايس دمشق 1986 ط1

4. أبو يعقوب السكاكي . يوسف مفتاح العلوم .تح.عبد الحميد هنداوي.داراكتب العلمية بيروت. 2007.ط1

5. أبو زيد إبراهيم . الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي . دار المعارف القاهرة 1983 م ط2

6. أبي الفرج قدامة بن جعفر . ت ح . د محمد عبد المنعم خفاجي . دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1948م ط1

7. ابن رشيق القيرواني .العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ت ج . محمد عبد الحميد المكتبة التجارية الكبرى. مصر 1963. ط3

8. الرباعي عبد القادر . الصورة الفنية في النقد الشعري . دار العلوم للطباعة .1984. ط1 دراسة في النظرية والتطبيق.

9. حسان بن ثابث الانصاري ديوان . وضعه و ضبط الديوان و صححه . عبد الرحمان البرقوقي ، مصر 1929 د.ط

10. جابر عصفور . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب .دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان 1983 ط3

11. راوية عبد المنعم عباس. الحس الجمالي وتاريخ الفن . دار النهضة العربية بيروت 1998 ط1

12. زايد عبد الرزاق أبو زيد .في علم البيان. مكتبة الأنجلو المصرية . مصر 1978. د ط

13. زكي مبارك . المدائح النبوية في الأدب العربي .دار الكاتب العربي للطباعة و النشر.1935 . ط1

14. سراج الدين محمد . المديح في الشعر العربي. دار الراتب الجامعي. بيروت. لبنان د.ت. د ط.

15. شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي . دار المعارف القاهرة . كورنيش النيل . 1963 م . دط

16. ضياء الدين ابن الأثير المثل السائر. ت ح. أحمد الحوقي وبدون طبانة مكتبة نهضة مصر 1960 ط1 ج

17. عبد العزيز عتيق. في الأدب الإسلامي و الأموي . دار النهضة بيروت . لبنان. 2001 ، ط1

18. عبد الملك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة ، بيروت ، 1986 ، ط 1

19. علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن 2هـ، دار الأندلس، بيروت ، 1981 ، ط

20. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث مطبعة دار نهضة مصر القاهرة 1997 دط

21. محمد مهداوي جماليات المقدمة في الشعر العربي القديم مقاربة تحليلية،ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون الجزائر2009 دط ص 111 نقلا عن د/ صبحي الصالح دراسات في فقه اللغة دار الملايين بيروت 1980ط